الباب الثالث عشر

الجانب الآخر من الملكية

١٤ – ٩٦ م(*)

الفصل الأول

تيبيريوس

إذا نزل العلماء من عليائهم إلى ميدان العواطف زاد العالم ولعاً بها . أما إذا كانت العواطف هى المسيطرة على السياسة تصدعت أركان الإمبراطوريات وزلزلت دعائمها . وكان اختيار أغسطس لتيبيريوس اختياراً حكيماً ، ولكنه جاء بعد فوات الفرصة . ولما كان تيبيريوس يعمل على إنقاذ الإمبراطورية بصبره وحسن قيادته أوشك الإمبراطور أن يحبه ، فقد جاء فى ختام إحدى الرسائل التى وجهت إليه : « وداعاً يا أحب الناس إلىّ ... ويا أشجع الرجال ، ويا أعظم القواد إخلاصاً وأحياهم ضميراً »(١) . ولكن عاطفة الجوار وقرب الدار أعمت أغسطس كما أعمت من بعده أورليوس ، فنأى بجانبه عن تيبيريوس وقرب إليه أحفاده الصغار ، واضطره إلى التخلى عن زواج سعيد موافق ليكون ديوث يوليا ، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها ، وتركه يبلغ سن الشيخوخة وهو يدرس الفلسفة فى رودس . ولما تولى تيبيريوس رياسة الدولة فى آخر الأمر كان قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وكره المجتمع ، ولم يعد يرى فى السلطان سعادة .

(*) ستكون كل التواريخ الواردة فى هذا الباب ومايليه بعد الميلاد إلا إذا نبهنا بأنها قبله .

وإذا شئنا أن نفهمه على حقيقته وجب علينا أن نذكر أنه من آل كلوديوس وأنه كان أول الفرع الكلودى من الأسرة اليوليوسية الكلودية التى كان آخرها نيرون . وقد ورث عن أبويه أنبل دم فى إيطاليا ، وأضيق أهلها أفقاً ، وأقواهم إرادة . وكان طويل القامة شديد البأس ، حلو الملامح ، ولكن حَبّ الشباب ضاعف من حيائه ، وسماجة طباعه ، وإحجامه وحبه للعزلة(٢) . ويمثله رأسه الجميل المحفوظ فى متحف بسطن فى صورة قس شاب عريض الجبهة ، واسع العينين غائرهما ، ذى وجه يدل على الحزن وعميق التفكير ، وقد بلغ من جده ووقاره فى شبابه أن أطلق عليه بعض المجان اسم « الرجل العجوز » . وقد أخذ من التربية كل ما يستطيع أن يأخذه عن الرومان واليونان والبيئة والتبعة ، وأتقن اللغتين اليونانية والرومانية وآدابهما ، وكتب الأغانى الشعرية ، ودرس التنجيم و « غفل عن الآلهة »(٣) . وكان يحب أخاه الأصغر دروسس رغم أنه كان أحب منه إلى الشعب ؛ وكان زوجاً مخلصاً وفياً لڤپسانيا Vipsania مكرماً لأصدقائه إكراماً لم يكونوا يترددون معه فى أن يهدوا إليه الهدايا وينتظروا منه أن يهدى إليهم أربعة أمثالها . وكان أقسى قواد زمانه وأقدرهم ، فنال بذلك إعجاب جنوده وتعلقهم به ، لأنه كان يعنى بكل شئونهم مهما صغرت ، ولأنه كان يكسب المعارك بفنه أكثر مما يكسبها بدماء جنده .

ولكن فضائله هى التى قضت عليه ، فقد كان يصدق القصص التى تروى عن أعمال أسلافه ، وكان يتوق إلى رؤية صرامة الرومان الأقدمين تعود إلى المدنية الجديدة ، وارتاح إلى إصلاحات أغسطس الأخلاقية ، ولم يخف قط عزمه على تنفيذها طوعاً أو كرهاً . ولم يكن يحب ذلك الخليط من الأجناس الذى كان يغلى فى بوتقة رومة ، فقدم إليهم الخبز ولكنه لم يقدم إليهم الألعاب ، وأغضبهم بامتناعه عن حضور ما كان يقدمه إليهم منها أثرياء المدينة . وكان قوى الاعتقاد بأن رومة لا ينجيها مما تردت فيه من الانحطاط إلا طبقة

من الأشراف الصلاب ذوى الخلق القويم والذوق الجميل . ولكن الأشراف والعامة على السواء لم يطيقوا صلابة عوده ، وصرامة وجهه ، وصمته الطويل ، وحديثه البطىء ، وما يبدو عليه من علم بتفوقه ، وفوق هذا كله اقتصاده الشديد فى أموال الدولة . فهو والحالة هذه رواقى ولد خطأ فى عصر أبيقورى . وقد حالت أمانته الصارمة بينه وبين تعلم فن سنكا ، فن الدعوة إلى عقيدة بلغة مزينة جميلة ، واتباع عقيدة أخرى والمثابرة عليها بتجمل وكياسة .

وظهر تيبيريوس أمام مجلس الشيوخ بعد أربعة أسابيع من وفاة أغسطس ، وطلب إليه أن يقرر إعادة الجمهورية ، وقال للأعضاء إنه لا يصلح لحكم تلك الدولة المترامية الأطراف ، « وإن خير طريقة لإدارة أعمال المصالح المختلفة التى تشرف على الشئون العامة فى مدينة احتوت هذا العدد الجم من الرجال النابهين ذوى الأخلاق العالية . . . أن يتولاها جماعة مؤتلفون من خير المواطنين وأعظمهم كفاية »(٤) . ولم يجرؤ أعضاء المجلس على أن يصدقوا ما يقوله لهم ، فحيوه كما حياهم بطأطأة رؤوسهم ، وما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة التى قال عنها « إنها استرقاق مبهظ مذل » على أمل أن يسمح له المجلس فى يوم من الأيام أن يعتزلها ليحيا حياته الخاصة متمتعاً بالحرية(٥) . وهكذا مثلت الرواية من كلا الجانبين أحسن تمثيل . وما من شك فى أن تيبيريوس كان يريد أن يتولى الزعامة وإلا لوجد سبيلا إلى الفرار منها ، وأن مجلس الشيوخ كان يخشاه ويبغضه ، ولكنه كان يرهب عودة جمهورية تقوم ، كما كانت تقوم الجمهورية القديمة ، على جمعيات تعد من الوجهة النظرية مصدر السلطات جميعها ، وكان يرغب فى نظام أقل دمقراطية من هذا النظام السالف الذكر لا أكثر منه . ولشد ما ابتهج حين أقنعه تيبيريوس (١٤ م) أن يأخذ من الجمعية المئوية حق اختيار الموظفين العموميين . وشكا المواطنون من هذا الانقلاب بعض الوقت وكان سبب شكواهم أنهم خسروا الأموال التى كانت تباع بها أصواتهم ، وأضحى كل ما بقى بعدئذ من السلطة لعامة الناس هو سلطة

اختيار الإمبراطور بقتل سلفه . ذلك أن الدمقراطية بعد تيبيريوس قد انتقلت من الجمعيات إلى الجيش ، وكانت أداة الانتخاب هى حد السيف .

ويلوح أنه كان يبغض الملكية بغضاً حقا خالياً من الرياء ، وأنه كان يعدّ نفسه رأس مجلس الشيوخ الإدارى وذراعه المنفذة ؛ ولذلك رفض من الألقاب كل ما تشتم منه رائحة الملكية وقنع بلقب « *زعيم الشيوخ* » Princeps senatus وقضى على كل محاولة تزمى إلى تأليهه ، أو عبادة روحه ، وأظهر كرهه للملق . ولما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى أحد الأشهر باسمه ، كما سمى من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس ، رد هذه التحية رداً ينطوى على الفكاهة فقال : « وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصراً ؟ »(*) . ورفض اقتراحا يطلب إليه أن يعيد النظر فيمن يختارون لعضوية مجلس الشيوخ ، وقال إنه لا شىء مطلقاً يفوق احترامه لهذه الجمعية القديمة « جمعية الملوك » . وكان يحضر اجتماعات المجلس ، ويحيل إليه « حتى أصغر الأمور ليحكم فيها » ، ويجلس فيه ويتكلم كأنه عضو عادى لا أكثر ، وكثيراً ما كان يقترع مع الأقلية ، ولم يحتج يوماً من الأيام إذا وافق المجلس على قرارات تتعارض مع رغبته التى أبداها جهرة(٧) . و « كان منطوياً على نفسه ، صبوراً » . على حد قول سوتونيوس « إذا ما وجهت إليه وإلى أسرته الشتائم والافتراءات والمطاعن » . وكان يقول فى ذلك « إن البلد الحر يجب أن تطلق فيه حرية القول والفكر »(٨) . ويعترف تاستس وهو من المعادين له أن ترشيحاته « كانت تصدر عن حكمة ، وأن من كان يرشحهم من الفناصل والپريتورين كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم . وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن

(*) ولقد كان على مجلس الشيوخ أن يعمل بقوله هذا فيقسم السنة إلى ثلاثة عشر شهراً كل منها ثمانية وعشرون يوماً يعقبها يوم عطلة (أو يومان فى السنة الكبيسة) .

تدخل الإمبراطور . وكانت القوانين إذا استثنينا ما يختص منها باغتصاب الملك تجرى فى مجراها الطبيعى . . . وكانت أعمال الإيرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة . . . ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى فى غير عنف أو قسوة . . . وساد النظام بين عبيده . . . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب لتفصل فى كل نزاع يقع بين الإمبراطور وأفراد الشعب ، وكان القانون وحده هو الفيصل فى هذا النزاع »(٩) .

ودام هذا الحكم الصالح ، حكم تيبيريوس ، تسع سنين ، استمتعت فيها رومة وإيطاليا والولايات بحكومة صالحة لم تر خيراً منها فى تاريخها كله . وحسبنا أن نذكر شاهداً على هذا أن تيبيريوس الذى وجد حين اعتلائه العرش فى خزانة الدولة مائة مليون سسترس ترك فيها حين وفاته ٢ر٧٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دون أن يفرض ضرائب جديدة ، وعلى الرغم من هباته الكثيرة للأسر والمدن التى حلت بها الكوارث ، وبالرغم من عنايته بإصلاح جميع المنشآت العامة وعدم اشتباكه فى حروب تجر له المغانم ، ورفضه كل ما أراد أن يوصى به إليه أشخاص لهم أبناء أو أقارب أدنون . ولم يدخر جهداً فى العناية بجميع شئون البلاد الداخلية والخارجية . وكان يكتب للولاة الذين يريدون أن يجبوا من الضرائب أكثر مما كان مفروضاً على ولايتهم يقول لهم : « لقد كان من واجب الراعى الصالح أن يقص صوف غنمه لا أن يجزها »(١٠) . ولم يكن يعزو إلى نفسه مجد الظفر فى ميدان القتال وإن كان من القادة المحنكين ، وقد بسط لواء السلام على الإمبراطورية واحتفظ به بعد السنة الثالثة من حكمه .

وكانت سياسة السلام هذه هى التى حالت بينه وبين ما كان يبغيه من تقدم فى عهده . ذلك أن جرمنكوس ابن أخيه ، وهو الشاب الوسيم الذى تبناه بعد موت دروسس ، كسب بعض المعارك فى ألمانيا ورغب فى أن يواصل الزحف عليها ليفتحها . وكان من رأى تيبيريوس عدم التورط فى هذا الفتح ،

فأغضب بذلك الشعب ذا النزعة الاستعمارية . وإذ كان چرمنكوبس حفيد ماركس أنطونيوس فإن الذين كانوا لا يزالون يحلمون بإعادة الجمهورية قد اتخذوه رمزاً لقضيتهم ، فلما أن نقله تيبيريوس إلى بلاد الشرق عد نصف أهل رومة هذا القائد الشاب شهيدا لحسد الزعيم ، ولما أن فاجأ چرمنكوس المرض ومات ظنت رومة كلها أن الإمبراطور قد أمر بأن يدس له السم فى الطعام (١٩) ، واتهم بهذه الجريمة أكنيوس پيزو أحد الموظفين المعينين من قِبَل تيبيريوس فى آسية الصغرى . وحاكمه مجلس الشيوخ ، وأيقن الرجل أن مجلس الشيوخ سيدينه فانتحر لكى يحتفظ بأملاكه لأسرته . ولم تكشف المحاكمة عن شواهد تدل على ارتكاب تيبيريوس لهذه الجناية أو تثبت براءته منها ، وكل ما نعرفه أنه طلب إلى مجلس الشيوخ أن يمكن پيزو من أن يحاكم محاكمة عادلة ، وأن أنطونيا أم چرمنكوس ظلت إلى آخر أيام حياتها أخلص أصدقاء تيبيريوس(١١) .

واضطر تيبيريوس أمام تدخل الجمهور الثائر الملتاج هذه القضية المشهورة ، والقصص البذيئة التى كانت تذاع عن الإمبراطور ، ودسائس أجريپينا أرملة چرمنكوس وإثارة الناس عليه اضطر تيبيريوس أمام هذا كله أن يلجأ إلى قانون الخيانة العظمى الذى أصدره قيصر والذى ينص على الجرائم التى ترتكب ضد الدولة . وإذ لم يكن لرومة مدع عمومى أو نائب عمومى ، ولم يكن لها (قبل أغسطس) شرطة ، فقد كان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يوجه التهمة أمام المحاكم لكل شخص يعرف أنه خرق القانون ، فإذا أدين المتهم كوفئ المخبر أو المبلغ بربع أملاك المحكوم عليه وصادرت الدولة بقية أملاكه . واستعان أغسطس بهذا الإجراء الخطير لإرغام الناس على إطاعة قوانينه الخاصة بالزواج . والآن وقد انتشرت المؤامرات ضد تيبيريوس فقد كثر المخبرون الذين رأوا أن يستفيدوا بالتبليغ عنها ، وكان أنصار الزعيم من الشيوخ على أتم استعداد للسير فى محاكمة المتآمرين بمنتهى الصرامة ، وحاول الإمبراطور أن يمنعهم ، ونفذ القانون

تنفيذاً صارماً فى حالة الذين اتهموا بتسوىء ذكرى أغسطس أو تدنيس تماثيله ؛ أما « الأشخاص الذين كانوا يوجهون التهم له فقد حرم أن يوقع عليهم عقاب ما » كما يقول تاستس . وأكد لمجلس الشيوخ أن والدته ليڤيا تريد منهم هذه المعاملة الرحيمة لمن يعتدون على سمعتها الطيبة(١٢) .

وأضحت ليڤيا نفسها فى ذلك الوقت إحدى المشكلات الكبرى فى الدولة . ذلك أن عجز تيبيريوس عن الزواج قد تركه وليس له من يحميه من امرأة ذات عقلية جبارة اعتادت أن يكون لها سلطان عليه . وكانت تشعر أن تدبيرها هو الذى هيأ له السبيل لاعتلاء العرش ، وأفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلا لها لا أكثر(١٣) . وكانت رسائله الرسمية فى سنى حكمه الأولى تحمل توقيعه وتوقيعها معاً ، وإن كان وقتئذ قدقارب الستين من عمره ، « ولكنها لم تقنع بأن تكون مساوية له فى شئون الحكم » كما يقول ديو « بل أرادت أن تفرض سيادتها عليه . . . وشرعت تصرف الأمور جميعها كأنها هى وحدها الحاكمة »(١٤) . وصبر تيبيريوس على هذه الحال صبر الكرام ولكن ليڤيا عاشت بعد أغسطس خمسة عشر عاما ، فشاد تيبيريوس لنفسه قصراً خاصاً ، وترك أمه لا ينازعها منازع فى امتلاكها القصر الذى شيده أغسطس . وراحت ألسنة السوء تتهمه بقسوته عليها ، وبأنه أمات زوجته المنفية من الجوع . وكانت أجريينا فى أثناء ذلك تدفع ابنها نيرون ليخلف تيبيريوس على العرش أو ليغتصبه منه إن أمكن(١٥) . وتحمل هذا أيضاً على مضض ، وكل ما فعله أن أنبها على فظاتها بعبارة مقتبسة من اللغة اليونانية : « هل تظنين يا ابنتى العزيزة أنك تظلمين إذا لم تكونى إمبراطورة ؟ »(*) وكان أصعب شىء على نفسه أن يعرف أن وحيده دروسس الذى رزقه من زوجته الأولى كان فتى رقيعاً ، دنيئاً ، نقاسياً، فاسد الأخلاق ، شهوانياً ، فاجراً .

(*) أجريپينا ابنة يوليا من أجربا ، وربيبة تيبيريوس بعد زواجه من يوليا ، وزوج متبناه چرمنكوس ، وكان ابنها نيرون عم الإمبراطور نيرون المعروف ، وكانت ابنتها أجريپينا الصغرى أم هذا الإمبراطور .

وكان هذا الكبت الذى فرضه تيبيريوس على نفسه ، وصبره على هذه المحن ، سبباً فى إثارة أعصابه وضيق صدره ، فأخذ يزداد انطواء على نفسه ، وبدت على وجهـــه الكآبة ، وفى حديثه الصرامة ، مما نفر منه الناس جميعاً ، وأبعدهم عنه ، اللهم إلا أصدقاءه الذين يرجون له الخير . وكان ثمة رجل واحد بدا أنه أكثر الناس وفاء له ، ذلك هو لوسيوس إيليوس سچانوس Lucius Aelius Sejanus .

وأثرت فى تيبيريوس خيبته وحزنه ، وأضحى رجلا حزيناً فريداً فى السابعة والستين من عمره ، فغادر العاصمة الهائجة المحمومة وآوى إلى كاپرى حيث عاش عيشة العزلة بعيداً عن سائر الناس . ولكن ألسنة السوء لم تنقطع عن الاستطالة فيه ، ولم يعقها عائق عن أن تتبعه فى عزلته ، فقال بعضهم إنه يريد أن يخفى عن أعين الناس جسمه الهزيل ووجهه الخنازيرى (*) ، ويطلق العنان لشهواته ورذائله غير الطبيعية[١٦] . ولا شك فى أن تيبيريوس كان كثير الشرب ، ولكنه لم يكن سكيراً ، أما قصة رذائله فأكبر الظن أنها افتراء عليه[١٧] ، ويقول تاستس إن معظم من كانوا حوله من الأصدقاء فى كاپرى كانوا من اليونان الذين لا يمتازون بشىء إلا بالأدب »[١٨] . وظل وهو فى عزلته يصرف شئون الإمبراطورية تصريفاً حازماً حكيما ، إلا أنه كان يبلغ آراءه ورغباته إلى الموظفين وإلى مجلس الشيوخ على لسان سچانوس Sejanus . وإذ كان المجلس يخشاه خشية متزايدة ، أو يخشى سچانوس أو الحرس العسكرى فقد كان يقبل رغبات الإمبراطور ، ويرى أنها أوامر واجبة الطاعة . وبذلك استحالت الزعامة إلى ملكية تحت سلطان الرجل الذى عرض أن يعيد الجمهورية ، ومن غير أن يحدث أى تغيير فى دستور البلاد ، ومن غير أن يبدو من تيبيريوس نفسه أى دليل واضح على عدم الإخلاص .

وانتهز سچانوس الفرصة التى أتيحت له فنفى عدداً كبيراً من أعدائه بعد اتهامه إياهم بتهم ينطبق عليها « قانون الخيانة أو » « قانون الجلالة « حسب اسمه

(*) المصاب بداء الخنازير وهو داء من أعراضه انتفاخ الغدد فى أجزاء مختلفة من الجسم وخاصة فى العنق . (المترجم)

اللاتينى . ولم يتدخل الإمبراطور المتعب فى هذا الأمر . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله سوتنيوس فإن تيبيريوس نفسه قد ارتكب كثيراً من أعمال القسوة(١٩) ، ويقول تاستس — وهو ممن لا يعتمد على أقوالهم — إنه طلب تنفيذ عقوبة الإعدام فى پيوس سبينوس Poppaeus Sabinus بحجة أن عيونه قد سمعوه وهو يأتمر بالحكومة(٢٠) . وماتت ليڤيا بعد سنة من ذلك الوقت (٢٧) ، حزينة وحيدة فى بيت زوجها السابق ؛ ولم يحضر تيبيريوس جنازتها ، ولم يكن قد رآها بعد أن غادر رومة إلا مرة واحدة . وتحرر سجانوس بموتها مما عساه أن تفرضه عليه « أم بلادها » من قيود ، فأقنع تيبيريوس بأن أجريپينا وابنها نيرون كانت لهما يد فى مؤامرة سبينوس ، فنفيت الأم إلى پندتيريا Pandateria ونفى الابن إلى جزيرة پنتيا Pontia حيث قتل نفسه بعد ذلك بزمن وجيز .

وإذ كان سجانوس قد كسب كل شىء إلا عرش البلاد فقد أخذ يعمل جاهداً للوصول إليه . وكان قد أغضبه خطاب كتبه تيبيريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح فيه جيوس ابن أجريپينا ليكون زعيما من بعده ، فدبر مؤامرة لاغتيال الإمبراطور عام(٣١). ونجا الإمبراطور بفضل أنطونيا أم جرمنكوس إذ خاطرت بحياتها لتبعث إليه تحذره من الخطر الذى يتهدده ؛ ولم يكن الزعيم الشيخ قد فقد عزيمته بعد فعين فى السر رئيساً جديداً للحرس ، وأمر بالقبض على سجانوس ، واتهمه بالخيانة أمام مجلس الشيوخ . ولم يكن هذا المجلس فى يوم من الأيام أكثر استجابة لرغبات الأباطرة منه فى هذه المرة ، فقد أدان سجانوس من فوره ، ونفذ فيه حكم الإعدام خنقاً فى الليلة نفسها . وأعقبت ذلك فترة من حكم الإرهاب تولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم ، أو آذى أقاربهم أو أصدقاءهم ، وأحياناً أخرى تولاها تيبيريوس نفسه . ودفعه الخوف والغضب ، اللذان استوليا عليه بعد أن زال عن عينيه ما كان يغشاهما من خداع ، إلى صورة جنونية من الانتقام . وفى هذه الفترة قتل كل إنسان ذى خطر عاون سجانوس

أو كانت له يد فى تنفيذ أغراضه ، ولم تنج من القتل ابنته الصغرى نفسها ؛ وإذ كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها ؛ وانتحرت مطلقته أبكاتا Apicata ، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطابا إلى تيبيريوس تبلغه فيه أن ليڤلا Livilla ابنة أنطونيا قد اشتركت مع سجانوس فى تسميم زوجها دروس ابن الإمبراطور ، فما كان من تيبيريوس إلا أن أمر بمحاكمة ليڤلا ، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت . وبعد سنتين من ذلك الوقت (٣٣) انتحرت أجريپينا فى منفاها كما امتنع عن الطعام ابن آخر من أبنائها ، كان قد حكم عليه بالسجن ، وظل ممتنعا عنه حتى مات .

وعاش تيبيريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس ، وأكبر الظن أنه أصيب وقتئذ بخبال فى عقله ، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسر ما يعزى إليه من أعمال القسوة التى لا يصدقها عقل . فنحن نسمع أنه كان فى ذلك الوقت يؤيد تهم الخيانة العظمى التى توجه إلى الناس بدل أن يعارض فيها ، كما كان يفعل من قبل ، حتى بلغ مجموع مَن أدينوا بتلك التهمة فى حكمه ثلاثة وستين شخصاً ، وتوسل إلى مجلس الشيوخ أن يعمل على حماية « شيخ وحيد طاعن فى السن » . وفى عام ٣٧ غادر كاپرى بعد تسع سنين من السجن الاختيارى ، وطاف ببعض مدن كمپانيا . وبينا كان يستريح فى بيت لوكلس الخلوى فى ميسنوم انتابته نوبة إغماء وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه . والتفّت بطانته من فورها حول جايوس الذى سيصبح فى ظنها إمبراطوراً بعد قليل ، ولكنهم روعوا حين رأوا تيبيريوس يفيق من نوبته . ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً بأن كتم أنفاسه بوسادة (٣٧)[٢١] .

ويصفه ممسن Mommsen بقوله إنه كان « أقدر حاكم شهدته الإمبراطورية »[٢٢] . وقد حلت به فى حياته كل الكوارث التى يمكن أن تحل بإنسان إلا القليل النادر منها ، وحتى بعد وفاته لم ينج من قلم تاستس .

الفصل الثانى

جايوس

احتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه : « تيبيريوس إلى نهر التيبر » ورحب بإقرار مجلس الشيوخ تنصيب جايوس قيصر چرمنكوس خليفة له . وكانت أجريپينا قد ولدت جايوس وهى ترافق چرمنكوس فى حروبه عند الحدود الشمالية ، فنشأ بين الجند ، ولبس لباسهم ، ولقبوه تدليلا له بلقب كالجيولا Caligula أو الحذاء الصغير أخذا من الحذاء النصفى Caliga الذى كان يحتذيه الجيش . فلما جلس على العرش أعلن أنه سيسير على المبادئ التى كان يسير عليها أغسطس فى سياسته ، وأنه سيتعاون مع مجلس الشيوخ فى جميع الأمور . ووزع على المواطنين التسعين مليون سسترس التى أوصى لهم بها تيبيريوس وليڤيا وأضاف إليها ثلثمائة سسترس لكل واحد من المائتى ألف الذين يأخذون حبوباً من الدولة . وأعاد إلى الجمعية حق اختيار كبار الحكام ، ووعد بتخفيض الضرائب وإقامة الألعاب الكبرى ، وأرجع ضحايا تيبيريوس المنفيين ، وجاء برماد أمه إلى رومة مصحوباً بمظاهر التقوى والتكريم . ولاح أنه سيكون على النقيض من سلفه فى كل شىء ، فقد كان متلافاً للمال ، مرحاً ، رحيما ، ولم يمض على اعتلائه العرش ثلاثة أشهر حتى قرب الناس للآلهة مائة وستين ألفاً من الضحايا شكراً لها على أن وهبتها زعيما فاتنا محسناً[٢٣] .

وكان الشعب قد نسى حسبه ونسبه فقد كانت جدته لأبيه أبنة أنطونيوس وكانت جدته لأمه ابنة أغسطس ، وقد تجددت فى دمه الحرب التى ثار عجاجها من قبل بين أنطونيوس وأكتاڤيان وانتصر فيها أنطونيوس . وكان كالجيولا يفخر بمهارته فى المبارزة ، والمجالدة ، وركوب العربات ، ولكنه

« كانت تنتابه نوبات الصرع » ، ويكاد فى بعض الأحيان » يعجز عن المشى أو التفكير »(٢٤) . وكان يختفى أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد ، ويفر مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا ؛ وكان مصاباً بالأرق يطوف به ليلا فى جنبات قصره الواسع يصيح طالباً طلوع الفجر . وكان طويل القامة ، ضخم الجسم ، كثيف الشعر ، إذا استثنينا رأسه الأصلع . وكان له صدغان منخفضان ، وعينان غائرتان ، تنفر الناس منه ، ويسر هو من ذلك النفور . وكان « يمثل بوجهه أمام المرآة كل المناظر المخيفة »(٢٥) . وكان قد أحسن تعليمه فى صباه ، فكان خطيباً مفوهاً ، حاد الذكاء ، فكهاً لا يراعى فى فكاهته احتشاماً ولا قانوناً . وقد افتتن بحب التمثيل فأعان كثيرين من الممثلين ، وكان هو نفسه يمثل ويرقص سراً . وكان إذا رغب أن يشهده النظارة دعا زعماء مجلس الشيوخ متظاهراً بأنه يدعوهم إلى اجتماع خطير ، ثم يعرض أمامهم رقصه(٢٦) . ولو أنه أتيحت له حياة هادئة يعمل فيها عملا يتحمل تبعته لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه ، ولكن سم السلطة ذهب بعقله ، ذلك أن صحة العقل ، كالحكم ، تحتاج إلى ضوابط وموازين ، وما من أحد من بنى الإنسان يستطيع أن يكون قادراً على كل شىء وأن يكون فى نفس الوقت سليم العقل . ولما أسدت إليه جدته أنطونيا بعض النصح أنبها بقوله : « اذكرى أن فى مقدورى أن أفعل أى شىء بأى إنسان » . وذكر لضيوفه فى إحدى الولائم أن فى وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون فى مقاعدهم ؛ وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكا : « سيطيح هذا الرأس الجميل بكلمة تخرج من فمى »(٢٧) .

وسرعان ما أخذ الزعيم الشاب يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب إليه الخضوع لهذه الأوامر ، بعد أن كان يظهر له أعظم الاحترام ، فصار يسمح

للشيوخ أن يقبلوا قدميه تعظيما له وتبجيلا ؛ ثم يتقبل الشكر منهم على تشريفه إياهم بهذا التقبيل(٢٨) . وكان شديد الإعجاب بمصر وأساليبها ، وأدخل كثيراً من هذه الأساليب إلى رومة ، وكان يتوق إلى أن يعبد على أنه إله كما كان يعبد الفراعنة ملوك مصر الأقدمون ، وجعل دين إيزيس أحد الأديان الرسمية فى الدولة ، ولم ينس أن جده الأكبر كان يعتزم ضم إقليم البحر الأبيض المتوسط تحت سلطان دولة ملكية شرقية ، فأخذ هو أيضاً يفكر فى نقل عاصمة ملكه إلى الإسكندرية ، ولم يحل بينه وبين تنفيذ قصده إلا ارتيابه فى ذكاء أهلها. ويصفه سوتونيوس بأنه كان يقضى وقته « فيما تعوده من فصاحة أخواته كلهن »(٢٩) ، فقد بدا له أن هذه عادة من أحسن العادات المصرية القديمة . ولما مرض أوصى بأن تكون أخته دروزلا Drusilla وريثة عرشه من بعده ، فلما تزوجت أرغمها على أن تطلق زوجها وأخذ « يعاملها كأنها زوجته الشرعية »(٣٠) . وكان يرسل إلى غيرها من النساء اللاتى كان يحبهن رسائل باسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن ، ثم يدعوهن إلى معانقته ، فلم توجد امرأة ذات مكانة إلا دعاها إليه . على أن هذه الصلات كلها مضافاً إليها صلات أخرى بينه وبين كلا الجنسين لم تمنعه أن يتزوج أربع مرات . وحضر مرة زفاف ليڤيا أرستلا Livia Orestilla وكيوس بيزو Caius Piso ، فما كان منه إلا أن أخذ العروس إلى بيته ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . وسمع أن لوليا پولينا Lollia Paulina بارعة الجمال ، فاستدعاها إليه ، وطلقها من زوجها ، وأمرها ألا تكون لها من ذلك اليوم علاقة ما بأى رجل . وكانت زوجته الرابعة سيزونيا Caesonia حاملا من زوجها حين تزوج بها ، ولم تكن صغيرة السن أو جميلة ولكنه أحبها وأخلص لها الحب .

وكانت شئون الحكم فى هذا العبث الإمبراطورى من الأمور التى لا يعبأ بها وفى وسعه أن يتركها لغيره من أصحاب العقول الصغيرة . وقد راجع كاليجولا السجل المحتوى على أسماء رجال الأعمال مراجعة تدل على

مقدرة فائقة ، ورقى خير هؤلاء الرجال أعضاء فى مجلس الشيوخ . ولكن إسرافه لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة من الأموال التى ملأها بها تيبيريوس، فبددها تبديداً منقطع النظير ؛ من ذلك أنه لم يكن يستحم بالماء بل بالعطور ، وقد أنفق على إحدى الولائم عشرة ملايين سسترس (٣١) ، وبنى قوارب عظيمة للنزهة ذات عمد وشاد أبهاء للمآدب ، وحمامات ، وحدائق ، وأشجار فاكهة ، مطعمة فى مؤخرها بالجواهر . وأمر مهندسيه أن يقيموا على خليج بايا Baiae جسراً مستنداً إلى عدد من القوارب بلغ من كثرته أن عز الطعام فى رومة لعدم وجود السفن لنقل الحبوب . ولما تم بناء الجسر أقيم احتفال عظيم ، وأضىء مكان الاحتفال بالأضواء الغامرة على الطريقة الحديثة ، وأخذ الناس يقصفون ويطربون ويشربون ، حتى انقلبت بهم القوارب وغرق منهم كثيرون . وكان من عادته أن ينثر من قصر يوليا النقود الذهبية والفضية على الشعب من تحته ، ثم يراقبهم فى مرح وسرور وهم يتنازعون نزاعاً قاتلاً على اختطاف هذه النقود . وبلغ من حبه للعصبة الخضراء فى سباق الخيل أن منح سائق إحدى العربات مليونى سسترس ، وأن بنى اصطبلا من الرخام ومذوداً من العاج لجواد السباق انستاتس Incitatus ، ودعاه إلى وليمة واقترح أن يعينه قنصلا .

وأراد أن يجمع المال اللازم لعبثه وشهواته التى لم تنقطع طوال حياته فأرجع العادة القديمة ، عادة تقديم الهدايا إلى الإمبراطور ؛ وكان يتسلم هذه الهدايا بيده ، وهو جالس فى شرفة قصره ، من كل من يقدمها إليه ؛ ويشجع المواطنين على أن يذكروه فى وصاياهم ويجعلوه وارثاً لهم ، وفرض الضرائب على كل شىء : على كل طعام يباع ، وعلى كل الإجراءات القضائية ، وفرض ٥ر١٢ ٪ على أجور الحمالين . ويؤكد سوتونيوس أنه فرض « على مكاسب العاهرات » ضريبة « تعادل مقدار ما تناله الواحدة منهن نظير عناقها مرة ، وقرر القانون أن تظل من كانت يوماً ما عاهراً خاضعة لهذه الضريبة وإن تزوجت (٣٢).

وكان الأغنياء فى أيامه يتهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزانة العامة . وكان هونفسه يبيع المجالدين والأرقاء بالمزاد العلنى ، ويرغم أشراف البلاد على حضور هذا المزاد والاشتراك فيه ؛ وكان الواحد منهم إذا غفا فسر إغفاءه بأنه عطاء ، حتى إذا استيقظ وجد نفسه قد كسب ثلاثة عشر مجالداً وخسر تسعة ملايين سترس(٣٣) ، وكان يرغم الشيوخ والفرسان على أن يجالدوا هم أيضاً فى المجتلدات. ودبرت بعد ثلاث سنين مؤامرة للقضاء على هذا العبث المذل ، ولكن كالجيولا كشف سر المؤامرة ، وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد عهداً من الإرهاب زاده وحشية حبه الجنونى للأذى ، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوا الضحايا بإثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون »(٣٤) . وإذا كان لنا أن نصدق ديوكاسيوس فإنه أرغم أنطونيا جدته التقية على أن تقتل نفسها(٣٥) ويقول سوتونيوس إنه لما قلّ ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الألعاب أمر أن يقدم « جميع الصلع » المساجين طعاماً لهذه الوحوش لأن فى ذلك الخير كل الخير للناس ، وإنه أمر أن يكوى جميع رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى وأن يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، وأن يلقوا للحيوانات الضارية ، أو يحبسوا فى أقفاص حديدية ثم تنشر أجسامهم نصفين بالمناشير(٣٦) . تلك قصص ليس فى وسعنا أن ننفيها أو نؤيدها ونحن نوردها هنا على أنها من الروَايات التى كان الناس يتناقلونها . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن بشأنها أن سوتونيوس كان مؤرخاً ثرثاراً مولعاً باغتياب الناس ، وأن الشيخ تاستس كان يكره الأباطرة ، وأن ديوكاسيوس كتب تاريخه بعد مائتى عام من حكم كالجيولا(٣٧) . وأصدق من هذه القصص فى رأينا ما يروى من أن كالجيولا أشعل نار الحرب بين الزعامة والفلسفة بنفيه كريناس سكندس Carrinas Secundus وإصدار حكم الإعدام على اثنين آخرين من المعلمين ، وأدرج اسم الشاب سنكا بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، ثم أنجاه من الموت مرضه واعتقاد الإمبراطور أنه

سيقضى نحبه دون حاجة إلى تجريح جسمه . ونجا كلوديوس عم كالجيولا لأنه كان أو تظاهر بكونه أبله حقيراً غلبت عليه شهوة قراءة الكتب .

وآخر ما لجأ إليه كالجيولا من العبث أن أعلن أنه إله معبود لا يقلّ شأناً عن چوپتر نفسه ، وحطمت رؤوس التماثيل الشهيرة المقامة لجوف وغيره من الأرباب ، ووضعت فى مكانها رؤوس للإمبراطور . وكان يسره أن يجلس فى هيكل كاسترو بلكس Castor and Pollux ويتلقى عبادة الناس . وكان يحلو له فى بعض الأحيان أن يتحدث إلى تمثال من تماثيل چوبتر ، وكان هذا الحديث فى الغالب تأنيباً للإله ، وقد استطاع بحيلة من الحيل أن يجيب عن قصف الرعد ووميض البرق كلما قصف الأول وأومض الثانى(٣٨) . وأقام هيكلا لعبادته ، وعين له جماعة من الكهنة ، وأمده بطائفة مختارة من الضحايا ، وعين جواده المحبوب كاهناً من بين كهنته . وادعى أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته ، وسأل ڤيتليوس Vitellius ألم يرها بعينه ؟ فكان جواب تابعه الحكيم « لا ، إن أمثالك من الآلهة هم وحدهم الذين يرى بعضهم بعضاً(٣٩) . ولكن الناس لم تخدعهم هذه السخافات ؛ من ذلك أن إسكافاً غالياً رأى كالجيولا متخفيا فى صورة چوبتر ، وسئل عن رأيه فى الإمبراطور فقال : « مخادع كبير » وعلم بذلك كالجيولا ولكنه لم يعاقب الرجل على هذه الشجاعة السارة(٤٠) .

وما كاد هذا الإله يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى أضحى شيخاً منهوك القوى من طول الإفراط ، ولعلة أصيب ببعض الأمراض السرية ، وحتى كان له رأس صغير نصف أصلع فوق جسم مسترخ بدين ، ووجه كالح ، وعينان غائرتان ، ونظرات خبيثة تنم عن الغدر والخيانة . ووافته المنية على غفلة ، وكانت منيته على يد الحرس البريتورى الذى طالما ابتاع معونته بالهدايا . وذلك أن ضابطا من ضباط الحرس يدعى كاسيوس كثيريا

Cassius Chaerea أهانه كالجيولا مراراً كثيرة بالألفاظ البذيئة التى كان يبلغها إليه كل يوم لتكون بمثابة سر الليل وجواز المرور ؛ فقتله سراً فى أحد ممرات الملهى (٤١) . ولما ذاع الخبر فى المدينة تردد أهلها فى تصديقه ، وظنوا أنه حيلة من حيل الإمبراطور الخبيث يريد بها أن يعرف أى الناس يبتهج بموته . وأراد مغتالوه ألا يتركوا الناس فى شكهم فقتلوا زوجته الأخيرة ؛ وحطموا رأس ابنته بدقه فى أحد الجدران . ويقول ديو إن كالجيولا عرف فى ذلك اليوم أنه ليس إلها(٤١) .

الفصل الثالث

كلوديوس

ترك كاليجولا الإمبراطورية والأخطار تتهددها من كل ناحية : فالخزانة خاوية ، ومجلس الشيوخ قد اضمحل وضعف شأنه ، والشعب غاضب ثائر ، وموريتانيا Moretania ثائرة ، وبلاد اليهود قد امتشقت الحسام لأنه أصر على أن يوضع تمثاله ليعبد فى هيكل أورشليم ، ولم يكن أحد يعرف أين يوجد الحاكم القدير الخليق بأن يواجه هذه المشاكل . ولكن حدث أن عثر الحرس البريتورى على كلوديوس الظاهر البلاهة مختبئاً فى أحد الأركان ، فنادوا به إمبراطوراً . وخشى مجلس الشيوخ صولة الجند ، ولعل هذا الاختيار قد انجاه من موقف لم يكن يحمده ، وسره أن يتعامل مع إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبأ بشىء . ولهذا أيد الحرس فى اختياره وارتقى تيبيريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمنكوس عرش الإمبراطورية فى تردد وخشية .

وكلوديوس هذا ابن انطونيا ودروسس وأخو چرمنكوس وليڤلا ، وحفيد أكتاڤيا وأنطونيوس ، وليڤيا وتيبيريوس كلوديوس نيرون . وكان مولده فى لجدنوم Lugdunum (ليون الحالية) فى السنة العاشرة قبل الميلاد ، وكان وقت أن اختير إمبراطوراً فى الخمسين من عمره ، طويل القامة ممتلئ الجسم ، ذا شعر أبيض ووجه بشوش ، ولكن شلل الأطفال وغيره من الأمراض قد أضعفت بنيته . وكانت ساقاه رفيعتان لا تكادان تقويان على حمله ، فكان يحجل فى مشيته ، وكان رأسه يتأرجح فوق كتفيه . وكان مغرماً بالخمر الجيد والطعام الشهى ، وكان يشكو داء الرثية ، ويتمتم قليلا إذا تحدث ، وإذا ضحك رفع صوته

إلى حد لا يليق بالأباطرة . ويقول عنه شانئوه القساة إنه كان إذا غضب خرج الزبد من فمه وسال المخاط من أنفه » (٤٣) . وقد قام على تربيته النساء والأرقاء المحررون ، فنشأ هياباً حساساً ، وهما صفتان قلما تصلحان للحكام ، ولم تكد تسنح له الفرص للتدرب على ممارسة شئون الحكم . وكان أقرباؤه يرونه إنساناً مريضاً ضعيف العقل ؛ وكانت أمه التى ورثت عن أكتافيا رقتها وظرفها تسميه « الهولة التى لم يكتمل خلقها » ، وكانت إذا أرادت أن تعير إنساناً بشدة البلاهـــة وصفته بأنه : « أشد بلاهة من ابنى كلوديوس » . وإذا كان محتقراً من جميع الناس فقد عاش خاملا مغموراً آمنا لذلك على نفسه ، يقضى وقته بين الميسر والكتب والشراب ؛ وتفقه فى اللغة وفى العاديات ، وكان ضليعاً فى الفنون « القديمة » ، والدين ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والقانون . وقد كتب تاريخاً لإتروريا ، وقرطاجنـــة ، ورومة ، ورسالة فى النرد ، وأخرى فى حروف الهجاء ، وملهاة يونانية ، وترجمة لحياته . وكان العلماء والفلاسفة يراسلونه ويهدون إليه مؤلفاتهم ، وينقل عنه بلنى الأكبر ويعده من الثقاة الذين يعتمد عليهم . وقد علم الناس وهو إمبراطور كيف يعالجون عض الأفاعى ، وهدأ مخاوف الشعب الخرافية بأن تنبأ بكسوف الشمس فى يوم ميلاده وفسر لهم سبب هذا الكسوف . وكان يحسن الكلام باللغة اليونانية ، وكتب عدداً من مؤلفاته بهذه اللغة ؛ وكان حسن النية ، ولعله كان صادقاً حين قال فى مجلس الشيوخ إنه كان يتظاهر بالغباوة لينجو من الموت .

وكان أول أعماله وهو إمبراطور أن منح كل جندى من جنود الحرس الذين رفعوه على العرش خمسة عشر ألف سسترس . وكان كالجيولا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع ولكنه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطورية . واعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته فى الوقت الذى ألغى فيه مرة أخرى حق الجمعية فى اختيار كبار الحكام . وكان أكثر حكمة وكرماً من سلفه ، فوضع حداً للاتهام بالخيانة ، وأطلق

سراح من سجنوا من قبل بمقتضى هذا الاتهام ، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم ، ورد الأموال المصادرة إلى أصحابها ، وألغى الضرائب التى فرضها جايوس . لكنه أمر بإعدام قتلة كالجيولا ، وحجته فى هذا أن الخطر كل الخطر فى التغاضى عن قتلة الأباطرة . وحرم عادة السجود للإمبراطور ، وأعلن فى صراحة أنه لا يريد أن يتخذ إلهاً يعبد . وحذا حذو أغسطس فى إصلاح المعابد ودفعه شغفه بالآثار القديمة إلى السعى لبعث الدين القديم . وانكب بجد وإخلاص على العناية بالشئون العامة ، وبلغ من عنايته بها أن كان « يطوف بمن يبيعون السلع ويؤجرون المبـــانى ، ليقوم كل ما يعتقد أن فيه ضرراً بمصالح الشعب »(٤٤) . ولكنه وإن جارى أغسطس فى اعتداله خرج عن تحفظ أغسطس وحذره إلى سياسة قيصر الجريئة المتشعبة ، فسعى إلى إصلاح أداة الحكم والقانون ، وأنشأ المبانى والخدمات العامة ، وأعلى من شأن الولايات ، ومنح الحقوق الانتخابية لغالة وفتح بريطانيا وصبغها بالصبغة الرومانية . وقد أدهش الناس جميعاً حين أظهر أنه ذو خلق وإرادة ، وليس ذا علم وذكاء فحسب . ولم يكن أقل ثقة من قيصر وأغسطس بأن كبار الحكام فى الأقاليم قليلو العدد ناقصو المران ، وأن مجلس الشيوخ يمنعه كبرياؤه ونزقه من الاضطلاع بمهام الإدارة البلدية والإمبراطورية المعقدة المتنوعة ؛ من أجل هذا كان يعظم المجلس فترك له سلطات كثيرة ، ومظاهر شرف وكرامة أكثر من هذه السلطات ؛ أما شئون الحكم الحقيقية فكان يضطلع بها بنفسه يعاونه مجلس يعين هو أعضاءه ، وهيئة من الموظفين العموميين نظمها تدريجاً واختار أفرادها ، كما اختارهم قيصر وأغسطس وتيبيريوس ، من أرقاء بيت الإمبراطور المحررين ؛ واستخدم فى الأعمال الكتابية والواجبات الصغرى أرقاء « عموميين » . وكان على رأس هذه الإدارة البيروقراطية أربعة وزراء : وزير دولة (« للمواصـــلات » ab epistulis) ، ووزير مالية (« للحسابات » a rationibus) ، ووزير آخر (« للملتمسات » a libellis) ، ونائب عمومى (« للقضـــايا القانونية » a cognitionibus) . وتولى الثلاثة

المناصب الأولى ثلاثة من أقدر الأرقاء المحررين — نارسس Narcissus ، وپلاس Pallas ، وكالستس Callistus . وكان ارتقاؤهم إلى هذه المناصب ذات الثراء والجاه إيذاناً بارتفاع شأن طبقة المحررين إلى أعلى الدرجات ، وهو ارتقاء كان يسير فى مجراه منذ قرون عدة ، وبلغ فى عهد كلوديوس هذه الدرجة الرفيعة . ولما احتج الأشراف على وضع السلطة فى أيدى هؤلاء العصاميين الحديثى النعمة كان جواب كلوديوس أن أعاد منصب الرقيب ؛ وأن اختير هو ليشغل هذا المنصب ، وأن أعاد النظر فى سجل الأشخاص الذين يختار منهم أعضاء المجلس ، فمحا منه أسماء كبار المعارضين لسياسته ، وأضاف إليه أعضاء جدداً من الفرسان ومن أهل الولايات .

ولما تهيأت له هذه الأداة الإدارية وضع لنفسه منهاجاً واسعاً من المنشئات العامة والإصلاحات ، فأصلح نظام المرافعات أمام المحاكم وفرض عقوبات على تأخير القضايا ، وجلس على منصة القضاء ساعات طوالا كل أسبوع ، وحرم تعذيب أى واحد من المواطنين . وأراد أن يقى مدينة رومة غائلة الفيضانات المخربة التى أصبحت تهددها وقتئذ أكثر من ذى قبل لأن سفوح الأپنين أخذت تجرد من الأشجار ، فأمر بحفر مجرى إضافى فى الجزء الأدنى من نهر التيبر . ولكى يعجل باستيراد الحبوب إلى إيطاليا أمر بإنشاء مرفأ جديد بالقرب من أستيا Ostia ، وأقام فيه مخازن ، وأحواضاً ، ورصيفين عظيمين لتقليل حدة أمواج البحر ، وحفر قناة توصل الميناء بنهر التيبر فى نقطة بعيدة عن مصبه الذى يسده الغرين . وأتم بناء قناة « كلوديوس » التى بدأها كاليجولا لنقل الماء العذب إلى رومة ، وشاد قناة أخرى ، وكانت كلتاهما من الأعمال الضخمة المشهورة بجمال منظرها وبعقودها الشامخة . ولما رأى أن أراضى المرسيين Marsians تتحول فى بعض فصول السنة إلى مناقع حين تفيض بحيرة فوستس ، خصص جانباً من أموال الدولة تؤدى منه أجور ٣٠,٠٠٠ عامل مدة أحد عشر عاماً

ليحفروا نفقاً طوله ثلاثة أميال يصل البحيرة بنهر سريز Ciris مخترقاً بعض الجبال . وقبل أن تنطلق مياه البحيرة فى هذا النفق أجرى فوق مياه البحيرة معركة بحرية صورية بين أسطولين عليهما تسعة عشر ألفاً من المجرمين الذين أدانتهم المحاكم ، وشهدها خلائق اجتمعوا من كافة أنحاء إيطاليا فوق التلال المشرفة على البحيرة . وحيت هذه الجموع الإمبراطور بالعبارة التاريخية المأثورة : « مرحباً بقيصر ! نحن الذين نوشك أن نموت نحييك Ave Caesar ! morituri salutamus te »[٤٥] .

وازدهرت أحوال الولايات فى عهده كما ازدهرت فى عهد أغسطس ، وعاقب الموظفين على سوء استخدام سلطة وظائفهم إلا فى حالة واحدة هى حالة فلكس المدعى العمومى فى بلاد اليهود ، وذلك لأن بلاس Pallas شقيق الشخص الذى نم على القديس بولس أخفى جرائمه عن الإمبراطور ، وكان يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولايات . وتمتاز مراسيمه التى عثر عليها فى كافة أنحاء الإمبراطورية بالإسهاب والتكرار ، ولكنها تكشف عن عقلية وعن إرادة منصرفتين إلى تحقيق الصالح العام . وقد بذل جهده لإصلاح وسائل المواصلات والنقل ، وحماية المسافرين من اعتداء اللصوص وقطاع الطريق ، وفى خفض ما تتكلفه الهيئات من نفقات الوظائف العامة المنشأة لخدمتها . وكان يرغب كما يرغب قيصر فى رفع شأن الولايات حتى تعادل إيطاليا نفسها وحتى تكون كلها وحدات متساوية فى مجموعة الأمم الرومانية ، فنفذ ما كان يعتزمه قيصر من منح حقوق المواطنية الرومانية لبلاد غالة الجنوبية ، ولو استطاع أن ينفذ رغباته لمنح هذا الحق جميع الرجال الأحرار فى الإمبراطورية[٤٦] . ولقد كشفت فى مدينة ليوم عام ١٥٢٤ لوحة برنزية احتفظت لنا بجزء من الخطبة الطويلة الكثيرة الاستطراد التى أقنع بها مجلس الشيوخ بأن يقبل فى عضويته وفى المناصب الإمبراطورية أولئك الغاليين الذين منحوا حق المواطنية الرومانية ، ولم يسمح فى الوقت نفسه بأن يضعف الجيش أو يعتدى على حدود الدولة ، فظل الجيش عاملا

قائما بمهمته ومستعداً على الدوام للقيام بها ، ونشأ فى أيامه قوّاد عظام من أمثال كربولا Carbula ، وڤسپازيان Vespasian ، وپولينس Paulinus ؛ وتكونوا بفضل اختياره وتشجيعه . وقرر كذلك أن يتم مشروعات قيصر فغزا بريطانيا فى عام ٤٣ وفتحها ، وعاد منها إلى رومة بعد أن غاب عنها ستة أشهر ، ولما أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته خالف جميع السوابق بأن عفا عن كركتكوس Caractacus ملكها الأسير . وسخر أهل رومة من عمل إمبراطورهم العجيب ولكنهم أحبوه ، ولما أن راجت مرة من المرات فى أثناء غيابه عن العاصمة ، شائعة كاذبة بأن الإمبراطور قد قتل ، عمت المدينة موجة من الحزن لم يسع مجلس الشيوخ معها إلا أن يؤكد للناس تأكيداً رسمياً بأن الإمبراطور لم يصب بسوء ، وأنه سيعود قريباً إلى رومة .

لكنه سقط من هذا العلو الشاهق لأنه أقام نظاماً للحكم أكثر تعقيداً مما يستطيع الإشراف عليه بنفسه ، ولأن عبيده المحررين وأفراد أسرته أساءوا استغلال لطفه وعطفه . لقد أصلحت البيروقراطية التى أنشأها أحوال الإدارة ، ولكنها فتحت فيهـا آلاف الثغرات للرشا والفساد ؛ وكان نارسس وبلاس من أعاظم رجال السلطة التنفيذية الذين يرون أن مرتباتهم أقل من كفايتهم ، فكانا يستعيضان عن هذا الفرق ببيع المناصب واغتصاب الرشا بالتهديد ، وتوجيه التهم الكاذبة إلى من يريدون مصادرة ضياعهم من الأثرياء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحا أغنى الناس جميعاً فى التاريخ القديم كله فكان نارسس يمتلك ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس (٨٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) وكان بلاس يشكو البؤس لأنه لم يكن له إلا ٣٠٠ر٠٠٠ فقط[٤٧] . ولما شكا كلوديوس من وجود عجز فى خزانة الإمبراطورية ، قال الثرثارون الرومان إن فى وسعه أن ينال كفايته من المال وفوق كفايته منه إذا أشرك معه فى الحكم عبديه المحررين[٤٨] . وروّعت هذه السلطات العظيمة والأموال المكدسة الأسر الشريفة القديمة التى أضحت وقتئذ فقيرة

بالقياس إلى هؤلاء العصاميين ، وكانت تتلظى غيظا حين تضطر إلى رجاء العبيد السابقين أن يسمحوا لها بأن تتحدث إلى الإمبراطور .

أما كلوديوس فقد كان منهمكا فى العمل ، يكتب إلى الموظفين والعلماء ، ويعد المراسيم والخطب ، ويؤدى حاجات زوجته . ذلك رجل كان خليقاً به أن يعيش عيشة الرهبان ، وأن يحصن نفسه من الحب ، لأن زوجاته كن سبباً فى القضاء عليه ، كما كانت سياسته فى منزله أقل نجاحا من سياسته الخارجية . وقد تزوج كما تزوج كاليجولا أربع مرات ، فأما زوجته الأولى فماتت فى يوم زفافها ، وأما الثانية والثالثة فقد طلقهما ؛ ولما كان فى الثامنة والأربعين من عمره تزوج فليريا مسالينا وهى فتاة فى السادسة عشرة ، لم تكن بارعة الجمال . فقد كان رأسها مستوياً ، ووجهها متورداً ، وصدرها قبيح الشكل(٤٩) . ولكن المرأة ليست فى حاجة إلى الجمال لكى تكون زانية ، ولما أن اعتلى كلوديوس عرش الإمبراطورية تخلقت بأخلاق نساء الملوك ، وادعت لنفسها حقوقهن ، فكانت ترافقه فى مواكب نصره ، وعملت على أن تحتفل بعيـــد ميلادها فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم أحبت الراقص منستر Mnesrer ، ولما صد عنها طلبت إلى زوجها أن يأمره بأن يكون أكثر إطاعة لرجائها ؛ وأجابها كلوديوس إلى ما طلبت ، وخضع الراقص إليها استجابة لدواعى الوطنية . وابتهجت مسالينا بنجاحها فى خطتها التى لم تكلفها إلا أقل العناء ، واتبعتها مع غيره من الرجال ، فأما الذين لم تنجح معهم هذه الخطة وظلوا على صدودهم فقد اتهمهم الموظفون الخاضعون لسلطانها بجرائم اخترعوها من عندهم اختراعا ، فصودرت أملاكهم وحرموا من حريتهم ومن حياتهم نفسها فى بعض الأحيان(٥٠) .

ولعل الإمبراطور كان يسمح بهذا العبث وتلك الأعمال الشاذة ليضمن لنفسه هو الآخر حرية الاستمتاع بما يريد من الملاذ ، « فقد كان مفرطاً فى شهواته

النسائية » كما يقول سوتونيوس ، ثم يضفى عليه بعدئذ هذه الميزة العجيبة التى يفضل بها غيره من الناس فيقول : « وكان مبرءآ من الرذائل غير الطبيعية »(٥١) ويقول ديو : إن مساليا « كانت تقدم إليه بعض الفتيات ذوات الجمال الجذاب ليضاجعهن »(٥٢) . وإذ كانت الإمبراطورة فى حاجة إلى المال تستعين به على عيشها واستهتارها فقد كانت تبيع المناصب والتوصيات ، وعقود الأعمال العامة . ونقل المؤرخون عن چوڤنال أنها كانت تدخل المواخير متخفية ، وتستقبل كل من يدخلها ، وتأخذ منهم كل ما يقدمون لها من الأجور وهى منشرحة الصدر راضية . وأكبر الظن أن هذه القصة منقولة عن المذكرات الضائعة التى كتبتها أجريپينا الصغرى التى خلفت مساليا وكانت من ألد أعدائها . ويروى تاستس أنه « بينما كان كلوديوس يقضى وقته كله فى تصريف شئون منصب الرقيب الذى كان يتولاه »(٥٣) — والذى يشمل فيما يشمله من الواجبات رفع مستوى أخلاق الرومان — كانت مساليا « تطلق العنان لحبها » ، وبلغ من استهتارها آخر الأمر أن تزوجت رسمياً من شاب وسيم يدعى كيوس سليوس Caius Silius حين كان زوجها غائباً فى أستيا ، وأن تزوجت به « فى احتفال مهيب صحبته كل المراسيم المعتادة(٥٤) . وأبلغ نارسس النبأ إلى الإمبراطور عن طريق سراريه(٥٥) ، وحذره من مؤامرة تدبر لاغتياله وإجلاس سيليوس مكانه على العرش . فعجل كلوديوس بالعودة إلى رومة ، واستدعى الحرس البريتورى ، وامر بذبح سليوس وغيره من عشاق مساليا ثم آوى إلى حجراته محطم الأعصاب منهوك القوى . أما الإمبراطورة فقد أخفت نفسها فى حدائق لوكلس التى كانت قد صادرتها لتتخذها مسرحاً للهوها وملذاتها . وبعث إليها كلوديوس برسالة يدعوها فيها إلى الحضور للدفاع عن نفسها . وخشى نارسس أن يصفح عنها الإمبراطور ويصب جام غضبه عليه هو فأرسل إليها بعض الجند وأمرهم بقتلها ، فوجدوها وحدها مع أمها ، وقتلها بعضهم بضربة واحدة وترك جثتها بين ذراعى

أمها(٥٨). وقال كلوديوس لحرسه البريتورى إنهم فى حل من دمه إذا تزوج مرة أخرى ولم يرد ذكر مساليناعلى لسانه من تلك الساعة(*).

ولكن لم تمض سنة على وعده هذا حتى كان يتردد بين الزواج من لوليا پولينا Lollia Paulina أو من أجرپينا الصغرى . فأما لوليا زوجة كاليجولا السابقة فكانت ذات ثروة طائلة ، ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتحلى بجواهر تبلغ قيمتها أربعين مليون سسترس(٥٩) ، ولعل كلوديوس كان يعجب بمالها أكثر من إعجابه بذوقها ؛ وأما أجرپينا فكانت ابنة أجرپينا الكبرى من چرمنكوس . وكانت هى الأخرى يجرى فى عروقها دم أكتاڤيان وأنطونيوس اللذين ماتا عدوين . وقد ورثت عن أمها جمالها ، وكفايتها ، وقوة عزيمتها وحبها للانتقام حبا لايحد منه شىء من وخز الضمير . وكانت قد ترملت مرتين ، ورزقت من زوجها الأول أكنيوس دومتيوس أهينوباربس Cnoeus Domitius Ahenobarbus ابنها نيرون ، وكان كل همها طول حياتها أن يرتقى ابنها هذا عرش الإمبراطورية . وأما زوجها الثانى كيوس كرسپس Caius Crispus الذى تقول الشائعات إنها قتلته بالسم فقد ورثت عنه الثروة الطائلة التى استخدمتها للوصول إلى أغراضها . وكان هدفها أن تتزوج كلوديوس ، وأن تتخلص بوسيلة ما من ابنه برتنكس ، وأن تجعل نيرون بعد أن يتبناه كلوديوس وارث العرش من بعده . ولم يعقها عن تنفيذ قصدها أنها ابنة أخت كلوديوس ، بل أتاحت لها هذه الصلة فرصاً ثمينة للاتصال بالحاكم الشيخ اتصالا أثار فيه عواطف ليست من قبيل عواطف الخال نحو ابنة أخته . ولم يكن منه إلا أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ وطلب إليه أن يأمره بالزواج

(*) وقد حاول فريرو Ferrero(٥٦) ، وبيورى Bury (٥٧) أن يفسرا زواج ساليناس من رجلين تفسيراً يبرره ، ولكن تاستس يؤكد القصة « التى يؤكدها الكتاب المعاصرون كما يؤكدها رجال موقرون كبار كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ، وكانوا على علم بأحواله كلها »(٥٨)

مرة أخرى لخير الدولة ؛ ووافق المجلس على طلبه ، وسخر منه رجال الحرس البريتورى ، ووصلت أجريبينا إلى العرش (٤٥) .

وكانت وقتئذ فى الثانية والثلاثين من عمرها ، أما كلوديوس فكان فى السابعة والخمسين ؛ وكانت قواه آخذة فى الانحلال ، أما هى فكانت فى عنفوان قوتها ، وتغلبت عليه بكل ما وهبت من سحر وفتنة ، فأقنعته بأن يتبنى نيرون وأن يزوج الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاما بابنته أكتافيا وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها (٥٣) . ولما تم لها هذا أخذت تزيد من سلطانها السياسى عاما بعد عام ، حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تجلس معه على سرير الملك ، ثم استدعت الفيلسوف سنكا من حيث كان منفياً بأمر كلوديوس ، وعينته مدرساً خاصا لابنها (٤٩) ، وأفلحت فى تعيين صديقها بروس Burrus رئيسا للحرس البريتورى . فلما استحوذت على السلطان بهذه الطريقة حكمت البلاد حكما قويا خليقاً بالرجال ، وساد النظام والاقتصاد فى بيت الإمبراطور ؛ ولو أنها لم تطلق العنان لجشعها وحرصها على المال وحبها للانتقام لكان حكمها خيراً لرومة ورحمة بها ، لكنها أطلقت العنان لهذا الجشع فأمرت بقتل لوليا پولينا لأن كلوديوس نطق عفواً فى لحظة من اللحظات بكلمة أشار فيها إلى رشاقة لوليا وهى إشارة لاتعفو عنها قط زوجة . ثم أمرت بدس السم لماركس سلانس Marcus Silanus لخوفها أن يعينه كلوديوس وارثاً له من بعده ، واتتمرت مع پلاس ونارسس ، وبذلك قضى ملك المال ، الذى لم يكن وفاؤه يقل عن تلوث يده ، بقية حياته فى السجن . وكان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحته ، وجهوده الفنية ، ومغامراته النسائية ، فترك پلاس وأجريبينا يروعان البلاد بحكم إرهابى آخر . فكان الناس ينهبون وينفون أويقتلون لأن الخزانة خلت من المال الذى أنفق فى الأعمال العامة والألعاب وأضحت فى حاجة إلى أن تملأ بالأموال المصادرة . وكانت نتيجة هـذا أن خمسة وثلاثين من الشيوخ وثلثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام فى

الثلاثة عشر عاما التى حكمها كلوديوس . وقد يكون لبعض هذه الأحكام ما يبررها لأن من نفذت فيهم دبروا المؤامرات أوارتكبوا الجرائم ، وإن كنا لانستطيع أن نقرر هذا واثقين . ولقد ادعى نيرون فيما بعد أنه فحص عن جميع أوراق كلوديوس ، وأنه تبين من ذلك الفحص أن الامبرطور نفسه أمر بأن يحاكم كل واحد ممن سيقوا أمام القضاء(٦٠) .

وتنبه كلوديوس إلى ما كانت تفعله أجرپينا بعد زواجه بها ، فاعتزم أن يضع حدا لسلطانها ، وأن يفسد عليها ما دبرته لنيرون ، فيعين برتنكس وارثا للملك من بعده ، ولكن أجرپينا كانت أقوى منه عزما وأقل منه إصغاء لصوت الضمير ، فلما علمت نية الإمبراطور جازفت بكل شىء ، فأطعمت كاوديوس فطيراً ساماً قضى عليه بعد آلام مبرحة دامت اثنتى عشرة ساعة دون أن يستطيع النطق بكلمة واحد (٥٤) . ولما ألهه مجلس الشيوخ ، وكان نيرون قد اعتلى العرش ، قال إنه لا يشك فى أن الفطير هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أن أكله إلهاً يعبد(٦١) .

الفصل الرابع

نيرون

ينتمى نيرون من جهة أبيه إلى أسرة الدوميتيين الأهينوباربيين Domitii Ahenobarbi ، وقد لقبوا بهذا اللقب لأن رجال هذه الأسرة كانت لهم لحى شبيهة فى لونها بلون البرنز . وقد اشتهروا فى رومة مدى خمسمائة عام بقدرتهم وجرأتهم ، وغطرستهم ، وشجاعتهم ، وقسوة قلوبهم . وكان جد نيرون لأبيه مولعاً بالألعاب وبالمسرح ، وكان يسوق عربة فى السباق ، وينفق الكثير من الأموال على الوحوش والمجتلدات ، وقد اضطر أغسطس إلى تأنيبه لقسوته الوحشية فى معاملة موظفيه وأرقائه . وقد تزوج بأنطونيا ابنة أنطونيوس وأكتافيا . وزاد ابنه أكنيوس دوميتيوس من شهرة الأسرة بانهماكه فى الفسق ، ومضاجعة المحارم ، والوحشية والخيانة . وقد تزوج فى عام ٢٨ م بأجريبينا الثانية ولم تكن وقتئذ تزيد على الثالثة عشرة من عمرها ، وإذ كان على علم بآباء زوجته وآبائه فقد اعتقد : « أن لا خير مطلقاً يمكن أن يؤدى إليه قراننا »(٦٢) . وقد أطلقا على ابنهما الوحيد اسم لوسيوس Lucius وأضافا إليه لقب نيرون ، ومعناه فى اللغة السبينية : القوى الشجاع .

وكان أهم من علموه هما كرمون Chaeremon الرواقى الذى علمه اللغة اليونانية ، وسنكا الذى علمه الأدب والأخلاق ولكنه لم يعلمه الفلسفة ؛ ذلك أن أجريبينا منعته من تعلم الفلسفة لزعمها أنها تجعل نيرون غير صالح لتولى عرش الإمبراطورية(٦٣) . وما من شك فى أن نتيجة هذا التحريم تشهد بفضل الفلسفة . وقد شكا سنكا ، كما يشكو كثير من الأساتذة ، من أن الأم كانت تفسد عليه عمله بتدخلها فيه ؛ فقد كان الغلام يهرول إليها كلما أنبه مدرسه ، ولم يكن يشك فى أنها ستحنو عليه وتدلله . وقد حاول

سنكا أن ينشئه على حب التواضع ، ودماثة الخلق ، والبساطة ، والتقشف ، والصبر على الشدائد ؛ وإذا كان قد حرم عليه أن يفصل له القول فى عقائد الفلاسفة وجدلهم ، فلا أقلّ من أن يهدى إليه الرسائل البليغة التى كان يؤلفها ، ويأمل أن يقرأها تلميذه فى يوم من الأيام : وكان الأمير الشاب طالباً مجدًّا ، وكان فى وسعه أن يكتب شعراً لا بأس به ، وأن يخطب فى مجلس الشيوخ بالرقة والأدب اللذين كان يخطب بهما أستاذه نفسه . ولما مات كلوديوس لم تجد أجرپينا صعوبة ما فى تثبيته على العرش ، وخاصة بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس بكامل قوّته .

وكافأ نيرون الجند مكافأة مجزية ووهب كل مواطن أربعمائة سسترس ، وألقى فى تأبين سلفه خطبة أثنى عليه فيها ثناء جماً ، كتبها له سنكا(٦٤) . وهو الذى نشر بعد قليل بغير توقيع هجاء مقذعاً فى الإمبراطور المتوفى قال فيه إنه طرد من أوليمپس . وقدم نيرون مظاهر الخضوع المعتادة إلى مجلس الشيوخ ، واعتذر فى أدب وتواضع عن صغر سنه ، وأعلن أنه لن يحتفظ بشىء من السلطات التى كان الزعيم يتمتع بها حتى ذلك الوقت عدا قيادة الجيوش — وهو اختيار عملى يشعر بذكاء تلميذ الفيلسوف . والراجح أنه كان مخلصاً فى وعده — لأن نيرون وفى به بأمانة مدى خمسة أعوام(٦٥) — وهى الخمسة الأعوام النيرونية Quinquennium Neronis التى كان تراچان يراها خير السنين فى تاريخ الحكومة الإمبراطورية(٦٦) . ولما اقترح مجلس الشيوخ أن تقام تماثيل من الذهب والفضة تكريماً له ، رفض الإمبراطور الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هـــذا العرض . ولما اتهم رجلان بأنهما يفضلان عليه برتنكس أمر أن يلغى هذا الاتهام ، وتعهد أمام مجلس الشيوخ أن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرحمة التى كان سنكا وقتئذ يمجدها فى إحدى رسائله المسماة De Clementia (الرحمة) ولما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد المجرمين قال فى حسرة

« ليتنى لم أتعلم قط الكتابة ! » وقدخفض الضرائب الباهظة أو ألغاها إلغاء تاماً ، وخصص معاشات سنوية للمتازين من الشيوخ الذين أحنى عليهم الدهر . وإذ كان يعرف أن عقلهلم ينضج بعد ، فقد سمح لأجرپينا أن تدير له شئونه ، فكانت تستقبل السفراء ، وأمرت أن تنقش صورتها على نقود الإمبراطورية إلى جانب صورته .وارتاع سنكا وبروس لتدخل الأم فى شئون الحكم فاتفقا على أن يضربا على وتر كبرياء نيرون لينالا لأنفسهما حق القيام بمهام الحكم . واستشاطت الأم غضباً فأعلنت أن برتنكس الوارث الشرعى للعرش ، وأنذرت ولدها بأنها ستسقطه بنفس الوسائل القوية التى استخدمتها فى رفعه . ورد نيرون على هذا التهديد بأن أمر بدس السم لبرتنكس فما كان من أجرپينا إلا أن آوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه *مذكراتها* ، وهى آخر سهم فى كنانتها ، وطعنت فيها على جميع أعدائها وأعداء أمها ، واغترف منها تاستس وسوتنيوس ذلك التيار الجارف من المثالب والأعمال الوحشية التى صورا بها النواحى السوداء من صور تيبيريوس وكلوديوس ونيرون .

وعم الرخاء الإمبراطورية ، وصلحت أحوالها الداخلية والخارجية ، بفضل إرشاد الفيلسوف الأول وقوة النظام الإدارى الذى كانت تساس به شئونها . فوضعت على الحدود حراسة قوية ، وطهرت البحر الأسود من القراصنة ، وأعاد كريولا أرمينية إلى حظيرة الإمبراطورية بأن بسط عليها الحماية الرومانية ، ووقّعت برثيا معاهدة صلح دامت خمسين عاما ، وقلّت الرشوة فى دور القضاء وفى الولايات ، وأصلحت أحوال الموظفين فى دواوين الحكومة ، وصرفت الشئون المالية بالاقتصاد والحكمة ، واقترح نيرون — ولعل ذلك كان بإيعاز من سنكا — ذلك الاقتراح البعيد الأثر القاضى بإلغاء جميع الضرائب غير المقررة ، وخاصة الرسوم الجمركية التى كانت تجبى عند الحدود وفى الثغور ، حتى تكون التجارة حرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . غير أن مجلس الشيوخ لم يوافق على

هذا الاقتراح ، متأثراً فى ذلك بنفوذ نقابة الجباة . وتدل هذه الهزيمة على أن الزعامة كانت لا تزال تلتزم حدود سلطتها الدستورية .

وأراد سنكا وبروس أن يمنعا نيرون من التدخل فى شئون الدولة فتركاه ينهمك فى ملذاته الجنسية كما يهوى . وفى ذلك يقول تاستس : « لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات فى الوقت الذى كانت فيه الرذيلة تستهوى جميع طبقات الناس » ولم تكن العقائد الدينية تشجع نيرون على أن يراعى جانب الفضيلة ؛ ذلك أن القدر الضئيل الذى ناله من الفلسفة قد حرر عقله من قيود الدين دون أن ينضج حكمته . « فقد كان يزدرى جميع أنواع العبادات » كما يقول سوتنيوس . « ويسلح على صورة الإلهـــة — سيبيل — التى كان يجلها أعظم الإجلال »(٦٨) . وكان نهماً مفرطاً فى الطعام ، غريب الأطوار والشهوات ، ينفق على الولائم بغير حساب ، حتى كانت أزهار الوليمة وحدها تكلفه أربعة ملايين سسترس(٦٩) . وكان يقول فى هذا إن البخلاء وحدهم هم الذين يحسبون ماينفقون . وكان يعجب بكيوس پترونيوس Caius Petronius ويحسده لأن هذا الشريف المثرى علمه طرقاً جديدة للجمع بين الفضيلة والذوق السليم . ويقول تاستس فى فقرة مأثورة يصف فيها المثل الأعلى للأبيقورية إن پترونيوس « كان يقضى أيامه فى النوم ولياليه فى العمل ، والمرح واللهو . وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة ، وكان ينجز بحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد . ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة . الاجتماعية ، ثم يبددون فى ذلك أموالهم ، بل كان يحيا حياة كثيرة النفقة ولكنها خالية من التبذير ، فكان أبقوريا ولكنه غير مسرف ، يطلق العنان لشهواته ولكنه يستمتع بها فى تجمل وحكمة . وهو شهوانى متعلم رقيق الحاشية ، حديثه مرح ممتع لطيف ، يخلب لب من يستمع له بشىء من عدم الاكتراث اللطيف الباعث على السرور . وكان أكثر ما يبعث السرور فى حديثه أنه ينساب

انسياباً طبيعياً غير متكلف من مزاجه الصريح : ولقد أظهر وهو وال على بيثينيا ، كما أظهر وهو قنصل ، أن قوة العقل ودماثة الخلق قد تجتمعان معاً فى شخص واحد ، وذلك رغم ما كان يتصف به من دقة : وأخذه الأمور فى يسر وإهمال . . . وكان يعود من أعماله الرسمية إلى مألوف حياة اللذة والمتعة ، مولعاً بالرذيلة أو بالملاذ التى تقترب من حدود الرذيلة ، وكان نيرون وعصبته مولعين بحسن الذوق والرشاقة فكانوا لذلك يتخذونه المحكم فى كل ما يتصل بهما ، ولم يكن شىء بديعا ، كما لم يكن شىء ساراً أو نادراً إلا إذا أراد هو أن يكون(٧٠) .

ولم يبلغ نيرون من الرقة مبلغاً يصل به إلى هذه الأبيقورية الفنية ، بل كان يتخفى ويزور المواخير ، ويطوف بالشوارع ، ويتردد على الحانات بالليل فى صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء ، ويفسقون بالغلمان ، ويجردون من يقابلون مما معهم ، ويضربونهم ويقتلونهم »(٧١) وحدث أن شيخاً لجأ إلى القوة فى رد اعتداء الإمبراطور عليه فأرغم بعد قليل على أن يقتل نفسه . وحاول سنكا أن يوجه شبق الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتى Claudia Acte ، فلما تبين له أن أكتى وفية له وفاء تعجز بسببه عن الاحتفاظ بحبه استبدل بها امرأة بارعة فى كل فنون العشق تدعى پوبيا سابينا Poppea Sabina وكانت پوبيا تنتمى إلى أسرة عريقة ذات ثروة طائلة ، يقول عنها تاستس إنها « كان لها نصيب موفور من كل شىء إلا الشرف » . وكانت من النساء اللواتى يقضين النهار كله فى تزيين أنفسهن ، ولا يحيين قط إلا حين يرغبن فى الحياة . وحدث أن افتخر زوجها بجمالها أمام نيرون ، فما كان من الإمبراطور إلا أن عينه والياً على لوزتانيا Lusitania (البرتغال) وضرب حصاراً على پوبيا ، ولكنها أبت أن تكون عشيقة له ، وقبلت أن تتزوجه إذا طلق أكتافيا .

وكانت أكتافيا قد صبرت على مساوئ نيرون صبر الكرام ، وتحافظت

على تواضعها وعفتها وسط تيار الدعارة الجارف التى اضطرت أن تحيا فى غمرته من يوم مولدها ، ومما يذكر بالفضل لأجريبينا أنها ضحت بحياتها فى الدفاع عن أكتافيا ضد پوپيا ، فلم تترك وسيلة تثنى بها الإمبراطور عن طلاق أكتافيا إلا لجأت إليها ، وبلغ من أمرها أن عرضت محاسنها على ولدها ، وقاومتها بوپيا مقاومة شديدة وتغلبت عليها ، ولجأت فى كفاحها إلى نزق الشباب ، فعيرت نيرون بأنه يخشى والدته ، وأقنعته بأن أجريبينا كانت تأتمر به لتسقطه ، وما زالت به حتى رضى فى ساعة من ساعات جنون الشهوة أن يقتل المرأة التى حملته فى بطنها وأعطته نصف العالم . وقد فكر أولا فى أن يقتلها مسمومة ، ولكنها كانت قد حصنت نفسها من السم بما تعودته من الأدوية المضادة له . ثم حاول أن يقتلها غرقاً ولكنها أنجت نفسها بالسباحة من السفينة التى تحطمت بتدبير الإمبراطور ، وطاردها رجاله إلى دارها ، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم : « ادفعوا سيوفكم فى رحمى » واحتاج قتلها إلى عدة طعنات ، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله : « لم أكن أعرف أن لى أما بمثل هذا الجمال »[٧٢] ؛ ويقال إن سنكا لم تكن له يد فى هذه المؤامرة ، ولكن أسوأ ما خط فى تاريخ الفلسفة وأدعاه للأسى هو تلك السطور التى تشرح كيف كتب الفيلسوف الرسالة التى وجهها نيرون إلى مجلس الشيوخ يقول فيها إن أجريبينا كانت تأتمر بالزعيم ، فلما افتضح أمرها انتحرت[٧٣] ؛ وقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير فى سرور ظاهر ، وأقبل أعضاؤه مجتمعين لهنئوا نيرون لما أن عاد إلى رومة ، وحمدوا للآلهة أن كلأته بعنايتها وأنجته من كل سوء .

وإن المرء ليصعب عليه أن يصدق أن هذا الإنسان الذى قتل أمه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، مغرم بالشعر والموسيقى والفنون الجميلة ، والتمثيل والألعاب الرياضية ؛ وأنه كان يعجب باليونان لمبارياتهم التى تنمى فيهم القوة الجسمية والمهارة الفنية ، وأنه عمل على إدخال هذه المباريات فى رومة فأقام فى

عام ٥٩ ألعاب الشباب ludi iuvenales ، وأنشأ فى السنة التالية الألعاب النيرونية Neronia على نمط الاحتفال الذى كان يقام كل أربع سنين فى أولمپيا ، ويشمل سباقا للخيـــل ، ومباريات فى الألعاب الرياضية ، وفى « الموسيقى » — ويدخل فيها الخطابة والشعر ، وبنى لذلك مدرجاً كبيراً وملعباً رياضيا وحماما عاما فخما ، وأنه يمارس الحركات الرياضية بمهارة فائقة ، كما كان مولعا بسوق العربات ، وأنه اعتزم أخيراً أن يشترك هو نفسه فى المباريات . لكنها هى الحقيقة ، وقد بدا لعقله المولع بكل ما هو يونانى أن هذا العمل لاغبار عليه ، بل كان يعتقد أنه يتفق مع أحسن التقاليد اليونانية . أما سكنا فكان يرى أن هذا سخف أيما سخف ، وحاول أن يقصر هذا العرض الإمبراطورى على من يضمهم ميدان خاص ، ولكن نيرون تغلب عليه ودعا الجماهير لتشهد ألعابه ، فأقبلت عليه وحيته تحية حماسية حارة .

ولكن أهم ما كان يرغب فيه هذا المخلوق الغريب بحق هو أن يكون فناناً عظيما . ذلك أنه ، وقد استحوذ على كل سلطة ، كان يتوق إلى الأستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب . ومما يذكر له مقروناً بالثناء أنه جد فى دراسة فنون النقش ، والتصوير ، والنحت ، والموسيقى ، والشعر(٧٤) . ولجأ فى تحسين صوته إلى وسيلة غريبة فكان « يستلقى على ظهره ، ويضع لوحاً من الرصاص على صدره ، ويفرغ أمعاءه بمحقن أو بالقىء ، ويمتنع عن أكل الفاكهة وعن كل طعام يضر بالصوت »(٧٥) . وكان فى بعض الأيام يقصر طعامه على الثوم وزيت الزيتون يتخذهما وسيلة للغرض نفسه . ودعا ذات ليلة أكابر الشيوخ إلى قصره وعرض عليهم أرغناً مائياً جديداً ، وأخذ يشرح لهم نظريته وتركيبه(٧٦) . وقد بلغ من إعجابه بالنغمات التى كان يضربها ترپنوس Terpnos على العود وافتتانه بها أن كان يقضى معه بعض الليالى بأكملها يتعلم العزف على هذه الآلة . وكان يجمع الفنانين والشعراء حوله ، ويعقد المباريات بينه وبينهم فى قصره ، ويفاضل بين

صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعارهم ويقرأ عليهم شعره . وكان ينخدع بثنائهم ، ولما أن أنبأه أحد المنجمين بأنه سيفقد عرشه ، أجابه ضاحكا بأنه فى هذه الحال سنيكسب قوته من فنه . وكان يحلم أنه فى يوم من الأيام سيعزف على ملأ من الناس على الأرغن المائى والناى ، وينفخ فى المزامير ، ثم يظهر على المسرح راقصاً وممثلا لأدوار فى مسرحية ترنس Turnus لفرچيل . وفى عام ٥٩ أقام حفلة موسيقية شبه عمومية عزف فيها على العود citharoedus فى حديقته الواقعة على نهر التيبر . وظل خمس سنين لا ينفذ ما تتوق له نفسه من إظهار مهارته فى جمع حاشد ، ثم نفذ هذا العزم فى ناپلى آخر الأمر . وسيطرت الروح اليونانية على هذا الحفل ، وعفا الناس عن تقصيره ، وأدركوا ما يرمى إليه . وازدحمت قاعة الاحتفال بالمستمعين ازدحاماً حال بينه وبين إجادة العرض ، وقد بلغ من شدة الازدحام أن تهدمت القاعة عقب خروج النظارة منها . وشجع هذا النجاح الإمبراطور الشاب فظهر فى ملهى پمپى العظيم فى رومة (٦٥) يغنى ويضرب على العود . وأنشد فى هذه المرة عدة قصائد لعلها كانت من قوله هو نفسه(*) . وقد بقيت أبيات من هذه ، وهى تدل على مقدرة فى القريض لا بأس بها . وكتب من أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس Paris) ، ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن رومة . ولم يكفه هذا التنوع فى مواهبه فظهر على المسرح ممثلا دور أوديب Oedipus ، وهرقل ، وألكميون ، بل إنه مثل أيضاً دور أرستيز قاتل أمه . واغتبط النظارة إذ شاهدوا إمبراطوراً يعنى بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب إليهم أن يصفقوا له حسب مألوف عادتهم . وتلقف الشعب الأغانى التى كان ينشدها نيرون وأخذ يرددها فى الحانات والطرقات ، وانتشر

(*) يقول سوتونيوس إنه شاهد المخطوطات الملكية مكتوبة ومصححة بخط نيرون نفسه(٧٧)

تحمسه للموسيقى والغناء بين جميع الطبقات ، وازدادت بذلك محبة الناس له ، وكان أخلق بها أن تنقص .

وارتاع مجلس الشيوخ من هذه المظاهر أكثر مما ارتاع من كل ما كان يدور من اللغط عما يحدث فى القصر من فجور ومن علاقات جنسية شاذة ، وأجاب نيرون عن مخاوف الشيوخ بقوله إن العادة التى كان يجرى عليها اليونان وهى قصر المباريات الرياضية والفنية على طبقة المواطنين كانت أفضل مما اعتاده الرومان وهو تركها للأرقاء ؛ وأن من الواجب ألا تتخذ المباريات صورة قتل المجرمين قتلا بطيئاً ؛ وأعلن الشاب المجرم أنه لن يسمح ما دام حياً بأن يستمر القتال فى المجتلد حتى يموت المجتلدون(٧٨) . وأراد أن يعيد التقاليد اليونانية إلى سابق عهدها ، وأن يمجد أعماله هو فى المباريات العامة ، فأقنع بعض الشيوخ أن يشتركوا فيها — أو لعله أرغمهم على هذا الاشتراك — ممثلين ، وموسيقيين ، ورياضيين ، ومصارعين وسائقى عربات . وأظهر بعض الأشراف أمثال ثراسى پيتس Thrasea Paetus نفورهم من هذه الأساليب ، فكانوا يتعمدون الغياب من مجلس الشيوخ كلما جاء نيرون ليخطب فيه ، وندد به بعضهم مثل هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus تنديداً عنيفاً فى المنتديات الأرستقراطية التى أضحت الملجأ الوحيد لحرية الرأى ؛ وأخذ الفلاسفة الرواقيون فى رومة يتحدثون جهرة عن هذا الأبيقورى الخبيث الجالس على العرش . ودبرت المؤامرات لخلعه ، ولكن عيونه كشفوا أمرها ، فكان جوابه كجواب أسلافه ، وهو التورط فى عهد من الإرهاب الشديد ، فأعيد قانون الخيانة (٦٢) ، ووجهت التهم إلى كل من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الثقافية أو المالية بسبب مقاومتهم أو ثرائهم . ذلك أن نيرون كان قد أفقر خزانة الدولة كما أفقرها كاليجولا من قبله بإسرافه وهباته وألعابه ، وجهر بعزمه على مصادرة جميع ضياع المواطنين الذين لا يوصون للإمبراطور بعد وفاتهم إلا بمبالغ قليلة ، ثم جرد كثيراً من الهياكل من نذورها ، وصهر ما كان

فيها من تماثيل ذهبية وفضية ؛ ولما أن احتج سنكا على هذه الأعمال وانتقد سلوكه وشعره — وكان غضب الإمبراطور على نقد شعره أشد من غضبه على نقد سلوكه — أقاله نيرون من منصبه فى البلاط (٦٢) ، وقضى الفيلسوف الشيخ الثلاث السنين الباقية من حياته فى عزلة عن العالم فى بيته ، وكان يورس قد مات قبل إقالة سنكا ببضعة شهور .

وأحاط نيرون بعدئذ نفسه بطائفة جديدة من القرناء ، معظمهم من قرناء السوء ذوى الغلظة والفظاظة ، فأصبح تجلينس ، رئيس شرطة المدينة ، مستشاره الأول ، ويسر للزعيم كل سبيل للملذات . وفى عام ٦٢ طلق نيرون أكتافيا بحجة أنها عقيم ، ولم يمض على طلاقها اثنا عشر يوماً حتى تزوج پوپيا ؛ واحتج الشعب على هذا العمل احتجاجاً صامتاً بتحطيم التماثيل التى أقامها نيرون لپوپيا وتتويج تماثيل أكتافيا بالزهور . وغضبت پوپيا من ذلك العمل وأقنعت حبيبها أن أكتافيا تعتزم الزواج مرة أخرى ، وأن مؤامرة تدبر لخلعه وإحلال زوج أكتافيا الجديد محله . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله تاستس فإن نيرون دعا أنسيتس Anicetus قاتل أجريپينا وطلب إليه أن يعترف بأنه ارتكب الفحشاء مع أكتافيا ، ويتهمها بأنها شريكة فى مؤامرة لاغتيال الزعيم . ومثل أنسيتس الدور الذى أمر بتمثيله ، ونفى إلى سردينية حيث قضى بقية حياته ينعم بالثروة والراحة ؛ أما أكتافيا فقد نفيت إلى بندتيريا Pandateria ، ولكنها لم يكد يمضى على مجيئها إليها إلا بضعة أيام حتى أقبل عليها وكلاء الإمبراطور يريدون اغتيالها . ولم تكن وقتئذ قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تكن تعتقد أن الحياة يليق أن تختتم هذه الخاتمة العاجلة ، وبخاصة إذا كانت حياة فتاة مثلها لم ترتكب قط ذنباً . ودافعت عن نفسها أمام قاتليها وقالت لهم إنها لم تعد إلا أخت نيرون ، وإنها عاجزة عن الإساءة إليه ، ولكنهم قطعوا رأسها وجاءوا به إلى پوپيا يطلبون إليها مكافأتهم على عملهم هذا . ولما أبلغ الشيوخ أن أكتافيا قد توفيت شكروا

للآلهة مرة أخرى أن قد حفظوا الإمبراطور وأنجوه من السوء(٧٩) .

وكان نيرون وقتئذ إلهاً من أولئك الآلهة . ذلك أن أحد القناصل المنتخبين اقترح بعد موت أجريبينا أن يقام هيكل « لنيرون المألَّه » . ولما أن ولدت له پوپيا فى عام ٦٣ ابنة توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس ربوبية هذه الطفلة ، ولما أن أقبل تريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون تاج أرمينية خر راكعاً أمام الإمبراطور وعبده بوصفه الإله متراس Mithras ، ولما أن شاد نيرون بيته الذهبي أقام أمامه تمثالا ضخماً ارتفاعه مائة وعشرون قدماً ، فى أعلاه رأس شبيه برأسه ، تحيط به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو فيبس أيلو Phoebus Apollo . هذا ما كان يتصوره أما حقيقته فإنه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره كان إنساناً فاسداً ، منتفخ البطن ، رفيع الأطراف ، ضعيفها ، ضخم الوجه ، مجعد الجلد ، أصفر الشعر ملتويه ، عسلى العينين كلتيهما .

وكان ، وهو كما يزعم إله وفنان ، يضايقه ما فى القصور التى ورثها من عيوب ، ولذلك صمم على بناء قصر جديد لنفسه . ولكن تل البلاتين كان مزدحماً بالقصور وكان فى أسفله المضمار الأكبر من ناحية ، والسوق الكبرى من ناحية أخرى ، والأكواخ القذرة الحقيرة من بقية النواحى ، وكان يحزنه أن يرى رومة قد نشأت على غير نظام موضوع ، بدل أن تخطط تخطيطاً علمياً كالإسكندرية وأنطاكية ، ولذلك كان يحلم بأن يعيد بناءها من جديد ، وأن يكون هو منشئها الثانى ، وأن يسميها نيروپوليس (مدينة نيرون) .

وحدث فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ أن شبت النار فى المضمار الأكبر ، وانتشرت انتشاراً سريعاً ، وظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثى المدينة . وكان نيرون غائباً فى أنتيوم Antium حين شبت النار ، فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إلى رومة فبلغها فى الوقت الذى استطاع فيه أن يرى القصور القائمة على تل البلاتين تلتهمها النيران . وكان البناء المعروف

بالدومس ترنستوريا (بيت المرور) الذى أقامه منذ زمن قريب ليربط به قصره بحديقة ماسيناس ، كان هذا البناء من أوائل ما تهدم من الأبنية ، ونجت أبنية السوق والكپتول من الحريق كما نجت أيضا الأحياء الواقعة فى شرق نهر التيبر . أما سائر أجزاء المدينة ، فقد دمر فيها ما لا يحصى من البيوت والهياكل والمخطوطات النفيسة والتحف الفنية . وهلك آلاف من السكان بين أنقاض المبانى المتهدمة فى الشوارع المزدحمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى يبيتون فيه وقد ذهب الرعب بعقولهم ، وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ، وبأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة(*) . وقد قام بجهود كبيرة فى قيادة المحاولات التى بذلت لحصر النيران أو التغلب عليها ، وإغاثة المنكوبين ، وأمر بأن تفتح جميع أبواب المبانى العامة والحدائق الإمبراطورية ليلجأ إليها المعدمون ، وأقام مدينة من الخيام فى ميدان المريخ ، وأمر بالاستيلاء على الطعام من الإقليم المجاور للمدينة ، ووضع الخطط الكفلية بإطعام الأهين(٨٠) ؛ وصبر على ما وجهه إليه الشعب الهائج الحانق من تهم وطعون . ويقول تاستس (وهو الرجل الذى يجب ألا ننسى قط تحيزه لأعضاء مجلس الشيوخ) إنه أخذ يتلفت حوله ليجد من يستطيع أن يلقى عليه التهمة حتى وجده فى :

« طائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة ، ويسمون غالباً بالكرستيانى Chrestiani (المسيحيين) . والاسم مشتق من كرستس Chrestus وهو اسم رجل عذبه بنتيوس پيلات Pontius Pilate المشرف

(*) يجمع تاستس (ص ٣٨ من الفصل الخامس عشر) وسوتونيوس (فى « نيرون » ص ٣٨) وديوكاسيوس (فصل ٦٧ ص ١٦) على اتهام نيرون بأنه هو الذى أشعل النار وأعاد إشعالها لكى يستطيع بناء رومة من جديد ، وليس لدينا ما نستند إليه فى إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه .

على الشئون المالية فى بلاد اليهود على عهد تيبيريوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت إلى الشيعة التى أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة إلى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى نشاطها وانتشرت انتشاراً سريعاً قويا فى بلاد اليهود . . . وفى مدينة رومة نفسها ، وهى مستودع الأقذار العام الذى ينساب إليه كل ما هو دنىء ممقوت انسياب السيل المنحدر من أقطار العالم . ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهودة فى الحيل ، فعثر على جماعة من الفجار والسفلة الأراذل ، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة النكراء ؛ وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين ، ولم يصدر الحكم عليهم بناء على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار فى المدينة : بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشرى كله . واستخدمت فى إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية ، ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف إلى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم فى الصلبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران ، لتكون مشاعل فى الليل . . . وفى آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعاً رأفة ورحمة ، ورقت هذه القلوب أسى على المسيحيين(٨١) .

ولما أزيلت الأنقاض أخذ نيرون يعيد بناء المدينة كما صورتها له أحلامه والغبطة بادية فى أسارير وجهه . وطلب إلى كل مدينة فى الإمبراطورية أن تقدم معونتها لهذا الغرض ، أو أرغمت على تقديم هذه المعونة ، واستطاع الذين دمرت بيوتهم أن يبنوا لهم بيوتاً جديدة بعد أن أمدهم بالمال المتجمع من هذه المعونة . وشقت الشوارع الجديدة مستقيمة متسعة ، وشيدت واجهات المنازل الجديدة وطبقاتها الأولى من الحجارة ، وجعلت بينها وبين غيرها من المبانى المجاورة لها فواصل تمنع انتشار النار من بناء إلى

آخر . وشقت تحت الأرض مجار تنساب فيها مياه العيون السفلى إلى خزان يحتفظ فيه بالماء ليستعان به على إطفاء النار فى المستقبل . وشاد نيرون من أموال الخزانة الإمبراطورية عقوداً ذات عمد على جانبى الشوارع الرئيسية فى المدينة ، لتكون مداخل مسقوفة ظليلة لآلاف من البيوت . وأسف المولعون بالقديم ، كما أسف الشيوخ المسنون ، على ما كان فى المدينة القديمة من مناظر جميلة خلع عليها الدهر هالة من الرواء والتقديس ، ولكنهم لم يلبثوا أن أجمعوا على أن رومة جديدة قد خرجت من بين اللهب أصح وآمن وأجمل من رومة القديمة .

ولو أن نيرون أعاد تنظيم حياته كما أعاد تنظيم عاصمته لغفر له الناس جرائمه ، ولكن پوپيا ماتت فى عام ٦٥ فى الأيام الأخيرة من حملها ، ويقال إنها ماتت من ركلة فى بطنها . وراجت بين الناس شائعة فحواها أن هذه الركلة كانت عقاباً لها على عودتها متأخرة من السباق(٨٢) وحزن نيرون حزناً شديداً على موتها ، لأنه كان ينتظر على أحر من الجمر وجود وارث له من صلبه ، وأمر أن تحنط جثتها بالأفاويه النادرة وتدفن بموكب مهيب وأبنها بنفسه . ثم عثر على شاب يدعى أسپورس Sporus عظيم الشبه بپوپيا ، فأمر بخصيه ، وتزوجه فى احتفال رسمى و « استعمله فى كل شىء كما تستعمل النساء » ، وقال فى ذلك أحد المتفكهين إنه يتمنى لو أن والد نيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة(٨٣) . وشرع فى السنة نفسها يشيد بيته الذهبى ، وكان إسرافه فى زينته ، كما كانت تكاليفه الباهظة ومساحته الواسعة — فقد أقيم على رقعة من الأرض كانت تشغلها من قبل آلاف من بيوت الفقراء — كان هذا كله سبباً فى إثارة سخط الأشراف عليه وارتياب العامة فيه من جديد .

وأقبل جواسيس نيرون فجاء يبلغونه نبأ مؤامرة واسعة النطاق تهدف إلى إجلاس كلپيرنيوس بيزو Calpurnius Piso على العرش(٦٥) ؛ وقبض صنائعه على عدد من الشخصيات غير الكبيرة متهمين بتدبير المؤامرة ، وانتزعوا منهم

بالتهديد تارة وبالتعذيب تارة أخرى اعترافات تدين ، بين من تدين من الشخصيات المعروفة ، الشاعر لوكان Lucan والفيلسوف سنكا Seneca ، وتكشف الخطة التى كان يرمى إليها الإمبراطور وأعوانه شيئاً فشيئاً . وبلغ انتقام نيرون درجة من الوحشية لم يسع رومة معها إلا أن تصدق ما شاع وقتئذ من أنه أقسم ليبيدنّ طبقة الشيوخ عن آخرها . ولما تلقى سنكا الأمر بأن يقتل نفسه شرع يجادل ساعة من الزمن ثم أطاع ، وقطع لوكان بعض أوردته ومات وهو ينشد أبياتاً من شعره . وأغرى تجلينس Tigellinus بالمال عبداً من عبيد پترونيوس Petronius فتقدم بالشهادة على سيده ، لأن تجلينس كان يحسد هذا الرجل الأبيقورى على منزلته عند نيرون فأغراه بقتله . ومات پترونيوس ميتة بطيئة بأن قطع أوردته ثم سدها ، وأخذ يتحدث مع أصدقائه حديثاً لطيفا كمألوف عادته ، ويقرأ لهم أبياتاً من شعره . ثم تنزه وأغفى بعض الوقت وفتح أوردته مرة أخرى وفارق الحياة فى هدوء واطمئنان(٨٤) . وأدين ثراسپايتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية فى مجلس الشيوخ ، ولم تكن التهمة التى وجهت إليه أنه اشترك فى المؤامرة ، بل كانت تهمة عامة يمكن أن توجه إلى أى إنسان وهى ضعف حماسته للإمبراطور ، وعدم استمتاعه بغنائه وتأليفه كتاباً فى حياة كاتو أثنى عليه فيه . واكتفى بنفى هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus زوج ابنته ، ولكن رجلين آخرين أعدما لأنهما كتبا يمتدحان برسكس وصهره . ونفى موسونيوس روفس Musonius Rufus أحد الفلاسفة الرواقيين وكاسيوس لنجينس Cassius Longinus أحد علماء القانون ، وحكم على أخوين لسنكا وهما أنيوس ميلا Annaeus Mela والد لوكان وأنيوس نوڤاتس Annaeus Novatus — وهو جليو Gallio الذى أطلق سراح القديس بوليس فى أثينة — هذان حكم عليهما بأن ينتحرا .

وبعد أن طهر نيرون مؤخرته على هذا النحو سافر فى عام ٦٦ ليتبارى فى الألعاب الأولمبية ويطوف ببلاد اليونان فى رحلة موسيقية ، لأن « اليونان »

على حد قوله « هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية »(٨٥) . واشترك فى أولمپيا فى سباق العربات وساق فيها بنفسه مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياد فى صف واحد أفقى مستعرض Quadriga وسقط من العربة فى حلبة السباق وكاد يقضى عليه ، ولما أعيد إلى العربة واصل السباق وقتاً ما ، لكنه انقطع عنه قبل نهاية الشوط . وكان المحكمون يفرقون بين الإمبراطور والرجل الرياضى ، فقدموا له تاج النصر . وتملكته نشوة الفرح حين رأى الجماهير تصفق له طرباً فأعلن من فوره أن بلاد اليونان كلها لا أثينة وأسپارطة وحدهما ستكون من تلك الساعة حرة طليقة — أى أنها لن تعطى الجزية لرومة . وكان جواب المدن اليونانية على هذا الكرم أن أقامت الألعاب الأولمپية والپيثية Pyth an والنيميائية Nemean والبرزخية Ishmian(*) فى عام واحد . ورد هو على ذلك بأن اشترك فيها جميعها مغنياً ، وعازفاً ، وممثلا ، ومتبارياً فى الألعاب الرياضية . وقد حرص أشد الحرص على إطاعة قوانين المباريات ، وكان شديد المجاملة لمنافسيه ، ومنحهم حق المواطنية الرومانية تعزية لهم على تفوقه عليهم جميعاً . وتلقى فى أثناء رحلته أنباء بأن الثورة شبت نارها فى بلاد اليهود ، وأن لهيبها اندلع فى الغرب كله . وكان كل ما فعله أن تنهد وتحسر ثم واصل رحلته . ومن أقوال سوتنيوس فى التعليق على هذه الرحلة أنه كان إذا غنى فى ملهى « لا يسمح لأحد بالخروج منه ، ولو كان ذلك لعذر شديد يحتم عليه الخروج ؛ وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء وهن فى الملهى ، وأن تظاهر بعض الرجال بالموت حتى يحملوا إلى الخارج »(٨٦) . ولما جاء إلى مضيق كورنثة أمر أن يبدأ العمل فى شق قناة فى هذا المضيق كما كان قيصر ينتوى أن يشقها ؛ وبدئ العمل فعلا ، ولكنه وقف فى أثناء الاضطراب الذى حدث فى العام الثانى . وارتاع نيرون لتوالى أنباء الفتن والمؤامرات فعاد إلى

(*) سميت كذلك لأنها كانت تقام فى الساحة المقدسة الممتدة على الشاطئ الشمالى الشرقى لبرزخ كورنثة .

رومة (٦٧) ودخلها فى موكب رسمى ، وعرض فى هذا الموكب غنائم نصره ، وهى الجوائز التى ظفر بها فى بلاد اليونان والبالغ عددها ١٨٠٨جائزة .

وكانت المآسى جادة مسرعة فى أعقاب هذه المهازل . من ذلك أن يوليوس ڤندكس Julius Vindex حاكم ليون الغالى أعلن استقلال بلاد الغاليين فى شهر مارس من عام ٢٦٨ ، ولما عرض نيرون جائزة قدرها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ سسترس لمن يأتيه برأسه أجاب ڤندكس عن هذا بقوله : « أن من يأتينى برأس نيرون سيأخذ فى مقابل ذلك رأسى »(٨٧) . وأخذ نيرون يعد العدة لملاقاة هذا العدو الشديد البأس فى الميدان ، وكان أول ما عنى به أن اختار العربات لينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات المسرح(٨٨) . وبينا هو يعد العدة إذ جاءته الأنباء فى شهر إبريل بأن جلبا Galda قائد الجيش الرومانى فى اسپانيا انضم إلى ڤندكس فى ثورته ، وأنه يزحف على رومة . وسمع مجلس الشيوخ أن الحرس البريتورى يتأهب للخروج على الإمبراطور طمعاً فيما يناله رجاله من أجور عالية ، فنادى بجلبا إمبراطورا . فما كان من نيرون إلا أن وضع بعض السم فى صندوق صغير ، وبعد أن تسلح بهذا السلاح الفتاك فر من بيته الذهبى إلى الحدائق السرڤيلية الواقعة فى طريق أستيا . وطلب قبل فراره إلى من كان فى القصر من الضباط أن يرافقوه ، فرفضوا جميعا طلبه ، وأنشد له أحدهم بيتاً من شعر ڤرجيل يقول فيه : « وهل من الصعب على الإنسان إذن أن يموت ؟ » . ولم يكن فى مقدوره أن يصدق أن قد فارقه فجاءة ذلك السلطان القاهر الذى كان سبباً فى القضاء عليه ، فأخذ يرسل النداء تلو النداء إلى الكثيرين من أصدقائه يطلب إليهم النجدة ، ولكن أحداً منهم لم يرد على رسالة من رسائله ، فذهب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه فيه . حتى إذا بلغه خارت . قواه ، وعرض عليه فاؤون أحد معاتيقه أن يخفيه فى بيته القائم على طريق سلاريا ، ورحب نيرون بهذا الاقتراح ، واجتاز فى ظلام الليل على ظهر جواد أربعة أميال من وسط المدينة إلى بيت فاؤون . وقضى تلك الليلة

فى مخزن الطعام ، وعليه جلباب قذر ، يتلوى من الجوع ، ولم يطف بجفنه النوم ، ترتعد فرائصه فرقاً من كل صوت يقع على أذنيه . وجاء رسول فاؤون يبلغه أن مجلس الشيوخ قد نادى بأن نيرون عدو الشعب وأمر بالقبض عليه ، وقرر أن يعاقب « حسب السنة القديمة » . وسأل نيرون عن ماهية تلك السنة فقيل له : « إن الرجل المذنب يجرد من ثيابه ، ويصلب جسمه فى عمود بمسمار ذى شعب يدق فى عنقه ، ثم يضرب حتى يقضى نحبه . وارتاع من هول هذا العقاب ، فحاول أن يطعن نفسه طعنة تقضى عليه ، ولكنه أخطأ إذ جرب سنان الخنجر أولا ووجده حاداً لا يطيقه فنادى قائلا : « أى فنان يموت موتى ! » :

وسمع فى مطلع الفجر وقع حوافر الخيل ، فأدرك أن جنود مجلس الشيوخ قد أدركوه ، فأنشد بيتاً من الشعر يقول : « استمعوا ؛ ها هى ذى أصوات الساعين إلىّ تقع على أذنى » — ثم طعن نفسه بخنجر فى حلقه ، ولكن يده اضطربت ووهنت فأعانه إپثروديتس أحد معاتيقه على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته ، وكان قد طلب إلى من حوله قبل موته أن يحولوا دون تشويه جسمه ، واجابهم رجال جلبا إلى ما طلبوا . وقامت مربياته العجائز وأكتى عشيقته السابقة بدفن جثته فى قباب قصر دومتيوس (٦٨) وابتهج كثيرون من العامة بموته ، وأخذوا يطوفون بأحياء رومة وعلى رؤوسهم قلانس الحرية . ولكن الذين حزنوا كانوا أكثر منهم لأن سخاءه على الفقراء لم يكن يقل عن قسوته الشديدة على العظماء ، وأصغوا إلى ما أشيع وقتئذ من أنه لم يمت بحق ، بل إنه يقاتل أعداءه فى طريق رومة ، ولما أن رضوا آخر الأمر بأن يصدقوا نبأ موته ، ظلوا شهوراً كثيرة يحجون إلى قبره وينثرون الأزهار أمامه(٨٩) .

الفصل الخامس

الأباطرة الثلاثة

وصل سرڤيوس سلپيوس جلبا Servius Sulpius Galba رومة فى يونية من عام ٦٨ ، وكان من أصل شريف ، فقد كان أبوه على حد قوله ينحدر من نسل چوپتر ، كما كانت أمه تنتمى إلى باسفائى Basiphaê زوجة مينوس Minos . وكان فى السنة التى ارتقى فيها العرش أصلع الرأس متقلص اليدين والقدمين من داء المفاصل ، فكان لا يستطيع أن يلبس حذاء أو يمسك كتاباً(٩٠) . وكان يتصف بالرذائل المألوفة فى تلك الأيام ، سوية كانت أو غير سوية ، ولكن هذه الرذائل لم تكن هى التى قصرت حكمه ، بل إن الذى أحنق الجيش والشعب عليه هو اقتصاده الشديد فى الأموال العامة ، وحرصه الشديد على تنفيذ العدالة(٩١) ؛ ولما أن قرر أن يرد كل من نالوا أعطية من نيرون تسعة أعشار ما استولوا عليه إلى خزانة الدولة ، خلق لنفسه آلافاً من الأعداء الجدد وتصرمت أيامه سراعا :

وذلك أن شيخاً مفلساً يدعى ماركس أتو Marcus Etho أعلن أنه لا يستطيع أداء ديونه إلا إذا أصبح إمبراطوراً(٩٢) . وانضم إليه الحرس ، وزحفوا على السوق والتقوا بجلبا راكباً فى هودج ، ومد جلبا عنقه إلى سيوفهم دون أن يبدى أية مقاومة ، فقطعوا رأسه وذراعيه ، وشفتيه ، وحمل واحد منهم رأسه إلى أتو ، ولكنه لم يستطع أن يقبض بقوة على شعره القليل المبلل بالدماء فأدخل إصبعه فى فمه . وأسرع مجلس الشيوخ فوافق على تولية أتو فى الوقت الذى كان الجيش الرومانى فى ألمانيا ينادى بقائده أولس ڤيتليوس Aulus Vitillius والجيش الرومانى فى مصر ينادى بقائده تيتس فلاڤيوس ڤسپازيانس Vespasianus Titus Flavius إمبراطوراً . وزحف ڤيتليوس على إيطاليا بفيالقه القوية ، وقضى

على ما أبدته الحاميات الشمالية ، وما أبداه الحرس البريثورى ، من مقاومة ضعيفة ، وانتحر أتو بعد أن حكم خمسة وتسعين يوما ، وارتقى ڤيتليوس عرش الإمبراطورية .

وليس مما يشرف النظام العسكرى الرومانى أن يتولى القيادة فى أسپانيا شيخ ضعيف مثل جلبا ، وفى ألمانيا أبيقورى متهاون مثل فيتليوس . لقد كان ڤيتليوس نهما أهم ما يعرفه عن الزعامة أنها وليمة يشبع فيها نهمه ، ويجعل كل وجبة من وجباته وليمة كبرى ، أما شئون الحكم فكان يكفيها ما بين الوجبات من فراغ ؛ وإذ كانت هذه الفترات قد أخذت تقصر شيئا فشيئا ، فقد ترك شئون الدولة فى يد معتوقه أسياتكس Asiaticus . فلم تمض على هذا المعتوق أربعة أشهر حتى أصبح أغنى رجل فى رومة . ولما علم ڤيتليوس أن أنطونيوس قائد ڤسپازيان يزحف بجيشه على إيطاليا ليخلعه ، عهد بالدفاع عنه إلى جماعة من أتباعه واستمر هو فى ولائمه . وكانت النتيجة أن جيوش أنطونيوس هزمت أنصار ڤيتليوس عند كرمونا Cremona فى شهر أكتوبر عام ٦٩ ؛ وفى هذه المعركة جرت الدماء كما لم تجر فى أية معركة أخرى فى التاريخ القديم كله ، وزحفت الجيوش الظافرة على رومة فقاومتها فلول فيالق ڤيتليوس مقاومة باسلة بينا كان هو مختبئاً فى قصره . ويقول تاستس « إن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة ، كأن منظر القتل وإراقة الدماء لم يكن إلا منظراً يعرض عليهم لتسليتهم » . وبينا كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن(٩٣) . وانتصرت جيوش أنطونيوس فى المعركة ، وأعملوا السيوف فى رقاب المهزومين بلا رحمة ، وأطلقوا لأنفسهم العنان فى السلب والنهب ، وساعدهم الغوغاء — وهم الذين لا يقلون عن التاريخ تمجيداً للمنتصرين — على إخراج أعدائهم من مخابئهم ، وسحبوا ڤيتليوس من مخبئه وطافوا به نصف عام فى أنحاء المدينة ، وحول رقبته طوق معقود ، وألقيت عليه الأقذار ، وعذب تعذيباً بطيئاً ، ثم أشفقوا عليه فقتلوه (ديسمبر من عام ٦٩) وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة وألقيت فى نهر التيبر(٩٤) .

الفصل السادس

قسپازيان

لشد ما يغتبط الإنسان بعد ما قرأه عن الأباطرة السابقين أن يرى رجلا متصفاً بالحكمة والكفاية والشرف ! لقد كان قسپازيان ، وهذه الأحداث قاتمة ، يخوض غمار الحرب فى بلاد اليهود ، ولذلك لم يتعجل فى القدوم إلى رومة ليشغل المنصب العالى المحفوف بأشد الأخطار الذى رفعه إليه جنوده وبادر مجلس الشيوخ إلى الاعتراف به . فلما وصل إليها فى اكتوبر عام ٧٠ أخذ يعمل بجد على إعادة النظام إلى المجتمع الذى اضطرب فى كل ناحية من نواحيه ، وسرى جده هذا إلى نفوس أعوانه . ولما أدرك أن لابد له أن يعانى نفس المشاق التى عاناها أغسطس ، سار على سيرة ذلك الزعيم وسلك مسلكه فى أخلاقه وسياسته ، فسالم مجلس الشيوخ ، وأعاد الحكم الدستورى إلى البلاد ، وأطلق سراح من حكم عليهم من قبل بمقتضى قانون الخيانة فى عهد نيرون وجلبا وأتو وڤيتليوس ، واستدعى من كان منهم منفياً خارج البلاد . ثم أعاد تنظيم الجيش وزاد عدد الحرس البريتورى ووسع سلطة رجاله ، وعين قواداً كفاة لقمع الثورات التى شبت نارها فى الولايات ، واستطاع بعد قليل أن يغلق هيكل يانوس Janus رمزاً لعودة السلام وعهداً منه بالمحافظة عليه .

وكان قد بلغ الستين من العمر ، ولكنه كان محتفظاً ببنيته القوية التى لم يوهنها الإفراط . وكان مفتول العضلات ، قوى الأخلاق ، ذا رأس عريض أصلع ضخم وملامح غليظة ولكنها مهيبة ، وعينين صغيرتين حادتين تخترقان المظاهر الخداعة إلى الحقائق المستورة . ولم يكن يتصف بشىء من شذوذ العباقرة ، ولا يزيد على كونه رجلا قوى الإرادة شديد

الذكاء العملى . وكان مولده فى قرية سبنية قريبة من ريتى Reate وأسرته من عامة الشعب . وكان جلوسه على العرش ثورة رباعية : فهاهو ذا قائد يتربع على عرش الإمبراطورية ، وهاهو ذا جيش من جيوش الولايات قد غلب الحرس البريتورى وتوج من يريده إمبراطوراً ، وهاهى ذى أسر الفلاڤيين Flavians قد خلفت أسرة اليوليو — كلوديين ، وعادات الطبقات الوسطى البسيطة وفضائلها قد حلت فى بلاط الإمبراطور محل الإتلاف الأبيقورى الذى كان يتصف به أنباء أغسطس وليڤيا الذين نشأوا فى الحواضر . ولم ينس ڤسپازيان قط أصله المتواضع ، ولم يحاول أن يخفيه عن الناس ، ولما حاول علماء الأنساب أن يصلوا بنسب أسرته إلى حد أصحاب هرقل طمعاً منهم فى عطائه أرغمهم بسخريته على الصمت . وكان يعود بين الفينة والفينة إلى البيت الذى ولد فيه ليستمتع بما فيه من أساليب وأطعمة ريفية ، ولم يسمح بأن يغير فيه شىء قط . وكان يزدرى الترف والبطالة ، ويأكل طعام الفلاحين ، ويصوم يوماً من كل شهر ؛ وأعلن حرباً عواناً على التبذير والإتلاف . وجاءه فى يوم ما رجل رومانى رشحه لمنصب من المناصب تفوح منه رائحة العطر ، فقال له : « لقد كنت أوثر أن تفوح منك رائحة الثوم » ، ورجع عن ترشيحه لذلك المنصب . ولم يحجب بابه عن الناس ، وكان يعيش كما يعيش عامتهم ويتحدث إليهم حديث الرجل الذى لا يترفع عنهم ، ويضحك من الفكاهة التى كانت توجه إلى شخصه ، ويسمح لكل إنسان أن يوجه إلى خلقه وسلوكه ما شاء من النقد بكامل حريته . وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفا عن المتآمرين ، وقال إنهم بلهاء لا يدركون عبء المتاعب التى ينوء بها كاهل الحاكم . ولم يعرف عنه أنه فقد حلمه إلا مرة واحدة . وذلك أن هلفديوس برسكس Helvidius Priscus بعد أن عاد إلى مجلس الشيوخ من منفاه الذى أخرجه إليه نيرون ، أخذ يطالب بعودة الجمهورية ويطعن على ڤسپازيان طعناً مراً فى السر والعلن ، فطلب إليه ڤسپازيان أن يمتنع عن حضور جلسات المجلس إذا

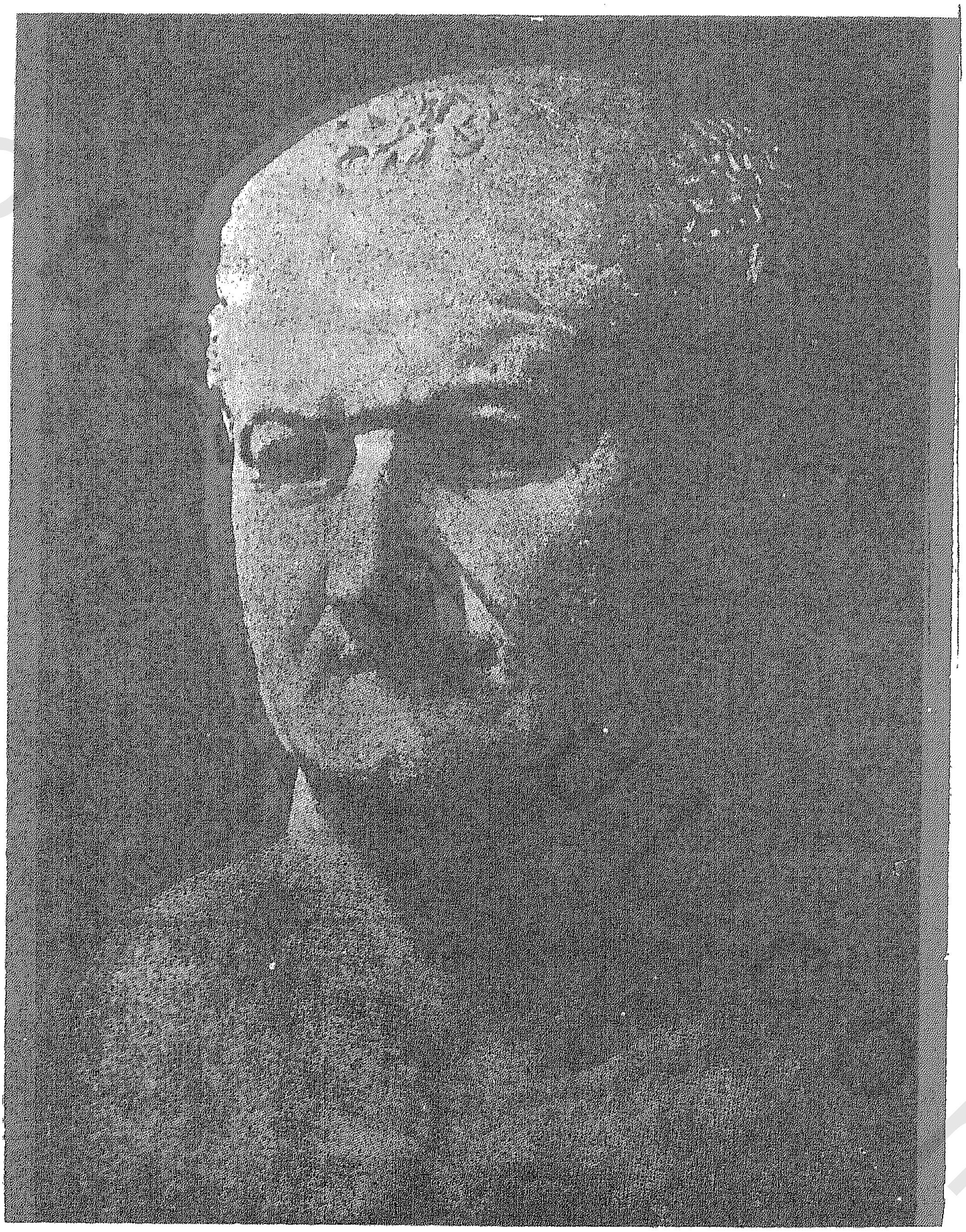

(شکل ٤٠) ئەپازیان

Obeikandl.com

كان يريد أن يواصل هذا السباب ، فلما رفض هلفديوس أن يجيبه إلى ما طلب نفاه إلى خارج البلاد ولوث حكمه الصالح بأن أمر بإعدامه . وقد ندم على عمله هذا فيما بعد واستمسك فى سائر عهده ، على حد قول سوتونيوس « بأعظم الصبر وهو يستمع إلى عبارات أصدقائه الصريحة . . . وإلى قحة الفلاسفة »(٩٥) . وكان هؤلاء فلاسفة كلبيين ساخرين أكثر منهم رواقيين ؛ كانوا فوضويين متفلسين يشعرون أن كل حكم أيا كانت صفته عبء مفروض على الناس فرضاً ، وكانوا يهاجمون كل إمبراطور يجلس على العرش .

وأراد أن يطعم مجلس الشيوخ بدم قوى جديد ، بعد أن أوهنته الحرب الأهلية والقيود المفروضة على اختلاط الأسر ، فعمل على أن يعين رقيباً ، ثم جاء إلى رومة بألف أسرة من الأسر الممتازة فى إيطاليا والولايات القريبة ، وسجل أسماءها فى سجلات طبقتى الأشراف والفرسان ، وملأ ما كان فى مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة ؛ وحذا هؤلاء الأشراف الجدد حذوه بعد أن ضرب لهم أحسن الأمثلة ، فأصلحوا بسلوكهم الأخلاق الرومانية والمجتمع الرومانى ؛ ذلك أن أفراد هاتين الطبقتين لم يكونوا ممن أفسدتهم الثروات الطائلة ، ولم يكونوا ممن طال عليهم العهد ببعدهم عن العمل الشاق وزراعة الأرض ، فلم يستنكفوا أن يقوموا بالواجبات والأعمال الرتيبة فى الحياة وتصريف شئون الحكم . وكانت تتصف بما يتصف به الإمبراطور من نظام حسن وآداب رقيقة . وقد خرج من هذه الطبقة الجديدة أولئك الحكام الذين صلحت بهم حكومة رومة بعد دومتيان Domitian مدى جيل كامل ، وأدرك فسپازيان ما جره من المساوئ استخدام العبيد المحررين منفذين لأوامر الإمبراطور ، فاستبدل بمعظمهم رجالا ممن جاء بهم من الأقاليم ومن طبقة رجال الأعمال التى أخذ عددها يزداد فى رومة . واستطاع بمعونة هؤلاء وأولئك أن يرد إلى رومة كرامتها وهو عمل يكاد يكون معجزة من المعجزات .

وقدر أنه فى حاجة إلى ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٤٠ سسترس لكى ينتشل البلاد من وهدة الإفلاس ويعيد الثقة إلى خزانة الدولة(٩٦)(*) فعمل على جمع هذا المال بأن فرض الضريبة على كل شىء تقريباً ، وزاد خراج الولايات ، وأعاد فرض الخراج على بلاد اليونان ، ورد إلى الدولة الأراضى العامة وأجرها للأفراد ، وباع القصور والضياع الإمبراطورية ، وفرض الاقتصاد الدقيق فى نفقات الدولة إلى حد جعل الناس يندددون به ويقولون عنه إنه فلاح بخيل ، وقرر ضريبة على المباول العامة التى كانت تزدان بها رومة القديمه كما تزدان بها رومة الحديثة . واحتج ابنه تيتس على هذه الضريبة الأخيرة المنافية للكرامة ، ولكن الإمبراطور الشيخ أمسك بيده بعض النقود المحصلة منها وقربها من فم الشاب وقال له : « انظر يا بنى ، هل تشم لها رائحة كريهة ؟ »(٩٧) . ويتهمه سوتونيوس بأنه ضاعف أموال الخزانة العامة ببيع المناصب ، وترقية أشد الموظفين شراهة فى جباية الضرائب من الولايات ، حتى يتخموا جيوبهم بالمال حين يعزلهم فجاءة ، ثم يفحص عن أعمالهم ويصادر ما جمعوه لأنفسهم . على أن هذا المالى الماهر الواسع الحيلة لم يستخدم لنفسه شيئاً مما جمعه ، بل استنفد هذا المال كله فى إنعاش الحالة الاقتصادية ، وفى تجميل رومة بالمنشآت العامة وفى تقدمها الثقافى .

وبقى بعدئذ على هذا الجندى الخشن أن ينشئ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فى التاريخ القديم ، فكان أول ماعمله فى هذا الميدان أن أمر بأن تؤدى لطائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية أجورهم من خزانة الدولة ، وأن يوظف لهم معاش بعد عشرين عاما من الخدمة . ولعل هذا الشيخ المتشكك قد أحس بأن للمدرسين نصيباً فى تكييف الرأى العام ، وبأنهم سيمتدحون الحكومة التى تؤدى إليهم أجر أعمالهم .

(*) هذا الرقم مأخوذ عن سوتنيوس ، ويرى كثيرون من المؤرخين أنه رقم مبالغ فيه ولا يقبله العقل ، ولكن يغلب على الظن أنه قدر بالنقد المنخفض القيمة فى ذلك الوقت .

ولعل سبباً كهذا هو الذى حدا به إلى إعادة بناء كثير من الهياكل القديمة فى الحواضر وفى بلاد الريف نفسها . فقد أعاد بناء هيكل جوپتر ، ويونو ومنيرڤا ، وكان جنود ڤيتليوس قد أحرقوا هذه الهياكل وهدموها فوق رؤوس جنوده . وشاد معبداً لپاكس Pax إلهة السلام ، وبدأ أشهر المبانى الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم . وغضبت الطبقات العليا حين رأت الضرائب تفرض على ثروتها لإقامة المنشآت للدولة وأداء الأجور للعمال الفقراء ، كما أن العمال أنفسهم لم يحمدوا له كثيراً عمله هذا . ومن أعماله الأخرى أنه حشد الشعب لإزالة ما خلفته الحرب الأخيرة من أنقاض ، وحمل هو نفسه أول ما حمل منها ، ولمـــا أن عرض عليه أحد المخترعين تصميم آلة رافعة تقلل الحاجة إلى العمل الجثمانى إلى حد كبير أبى أن يستخدمها وقال : « إنى أريد أن أطعم شعبى »(٩٨) وكان هذا الحظر المؤقت الذى فرضه ڤسپازيان على الاختراع اعترافاً منه بمشكلة التعطل الفنية ، وقراراً بالحيلولة دون حدوث ثورة صناعية .

وعم الرخاء الأقاليم إلى حد لم يكن له نظير من قبل ، فكانت ثروتها فى ذلك الوقت — إذا قدرت بالنقد على الأقل — ضعفى ما كانت عليه فى عهد أغسطس ، ولذلك تحملت أعباء ما زاد من الخراج من غير أن يصيبها ضرر ما . وعين ڤسپازيان أجركولا Agricola الرجل القدير حاكما على بريطانيا ، وعهد إلى تيتس أن يخمد ثورة اليهود ، فاستولى على أورشليم ثم عاد إلى رومة بكل مظاهر الشرف التى تتوج الإسراف فى التقتيل ، وسار القائد المظفر فى موكب نصره ومن ورائه صف طويل من الأسرى وقدر كبير من الغنائم مخترقا شوارع رومة ، وأقيم له قوس نصر شهير لتخليد ذكرى هذا النصر الباهر . وازدهى ڤسپازيان بانتصار ولده ولكنه ساءه وأقلق باله أن رأى تيتس يأتى معه بأميرة يهودية جميلة تدعى برنيس Bérenice لتكون خليلة له ، ويرغب أن يتزوجها ، وفى هذه المرة أيضاً حمل الآسر معه آسره .

ولم يكن الإمبراطور يرى سببا يدعو لأن يتزوج الإنسان خليلته ، وقد ظل هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة ولم يعن قط بأن يعقد عليها ، ولما ماتت كئينس هذه وزع قلبه بين عدة محظيات(٩٩) . وكان قوى الاعتقاد بأنه يجب أن يستقر على رأى فى وراثة العرش قبل وفاته ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة لمنع الفوضى . ووافقه مجلس الشيوخ على هذا الرأى ، ولكنه طلب إليه أن يختار « خير الأخيار » ويتبناه — ولعل المجلس كان يريد منه أن يختار أحد أعضائه . ورد ڤسپازيان بأنه يرى تيتس خير الأخيار . وأراد ولده أن ييسر الأمر لأبيه فأبعد عنه برنيس ، واستعاض عنها بالشيوعية الجنسية(١٠٠) . ثم أجلس الإمبراطور ولده معه على العرش وعهد إليه قسطا متزايداً من الحكم .

وزار ڤسپازيان ريتى مرة أخرى ، وشرب وهو فى الإقليم السبينى كثيراً من ماء بحيرة كوتليا Cutelia المسهل فأصيب بإسهال شديد . وظل وهو طريح الفراش يستقبل الرسل ويؤدى واجبات منصبه . وقد احتفظ إلى آخر لحظة بفكاهته السمجة رغم علمه بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت فقال : « وا أسفاه أظن أنى صائر إلى أن أكون إلها Vae i deus Puto fio ووقف على قدميه وهو يكاد أن يغمى عليه ، وأعانه على ذلك بعض أتباعه وقال : « إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفا » . وبهذا ختم حياة كاملة بلغت التاسعة والستين عاما ، واختتم حكما صالحا دام عشر سنين .

الفصل السابع

تيتس

كان أكبر ولديه المسمى باسمه تيتس فلافيوس ڤسپازيانس **Titus Vespasianus Flavius** أسعد الأباطرة كلهم حظا . ذلك أنه مات فى السنة الثانية من حكمه وفى الثانية والأربعين من عمره وهو لا يزال « محبوب بنى الإنسان » . ولم يطل به الوقت حتى تفسده السلطة(*) أو تتكشف له خيبة الرجاء . لقد امتاز وهو فى ريعان الشباب ببأسه وقسوته فى الحرب ، ولوث سمعته بالانغماس فى الملذات ، فلما أن تولى الحكم لم تسكره السلطة ، وصلحت أخلاقه ، وجعل حكومته مضرب المثل فى الحكمة والنزاهة . وكان أكبر عيوبه كرمه الحاتمى ، فكان يرى أن اليوم الذى لم يسعد فيه إنساناً ما بهبة يقدمها يوما أضاعه من حياته . وقد أسرف فى الإنفاق على المعارض والألعاب ، وترك خزانة الدولة الغاصة بالمال وهى تكاد أن تكون خاوية كما وجدها أبوه . ومن أعماله أنه أتم تشييد الكلسيوم ، وبنى حماما عاما جديداً فى رومة ، ولم يحكم على أحد بالإعدام فى أثناء حكمه القصير ، بل فعل عكس هذا ، فقد كان الواشون والمخبرون يضربون بالسياط وينفون من البلاد ، وأقسم أنه يفضل أن يقتل هو على أن يكون سبباً فى قتل إنسان ، ولما عرف أن اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه ، لم يعمل أكثر من أن يرسل إليهم يحذرهم ، ثم أرسل رسولا يطمئن والدة أحد المتآمرين ، ويبلغها أن ابنها لم يصب بسوء .

(*) يشير الكاتب بقوله « تفسده السلطة » إلى قول لورد أكتن **Acton** المشهور كل سلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة **All Power corrupts and absolute power corrupts absolutely** (المترجم)

وكان ما أصابه من سوء الحظ ناشئاً من نكبات لا سلطان له عليها ، ذلك أن حريقاً شب فى رومة ودام ثلاثة أيام ، دمر فيها كثيراً من الأبنية الهامة ، وكان مما دمر فيها مرة أخرى هياكل چوپتر ، ويونو ، ومنيرفا ، وفى السنة نفسها ثار بركان ڤيزوف ، وخرب پمپى ، وأهلك آلافاً من الإيطاليين ؛ وفى السنة التالية تفشى فى رومة طاعون لم تشهد وباء أشد منه فتكا فى تاريخها كله . وبذل تيتس كل ما فى وسعه ليخفف وقع هذه الكوارث الشديدة ، ولم تظهر فى ذلك العمل عناية الإمبراطور برعاياه فحسب ، بل ظهر كذلك عطف الوالد الحنون على أولاده »[١٠٢] . ومات تيتس بالحمى فى سنة ٨١ فى نفس البيت الريفى الذى توفى فيه أبوه من زمن قصير . وحزنت عليه رومة كلها إلا أخاه الذى خلفه على العرش .

الفصل الثامن

دومتيان

إن المؤرخ الذى يريد أن يرسم صورة صادقة لدومتيان ليجد فى ذلك صعوبة لا تعادلها صعوبة رسم صورة لنيرون نفسه . ذلك أن أهم المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن حكمه مصدران هما تاستس وپلنى Pliny الأصغر، وكلاهما ممن علا نجمهم فى عهده ، ولكنهما كانا من حزب الشيوخ الذين كانت بينهم وبينه حرب عوان يريد فيها كلا الطرفين أن يضرب الآخر الضربة القاضية . ولدينا فى مقابل هذين المؤرخين المعاديين له شاعران هما استاتيوس Statius ، ومارتيال Martial اللذين كانا ينالان رفده أو يسعيان لنيله ، واللذين شادا بذكره ورفعاه إلى عنان السماء . ولعلهم هم الأربعة كانوا على حق فيما قالوه عنه ، لأن دومتيان آخر الفلاڤيين بدأ حياته كالملائكة وختمها كالشياطين ، وكان شأنه فى هذا شأن كثيرين من اليوليوسيين — الكلوديين . وقد سايرت روح دومتيان جسمه فى هذا التطور : فقد كان فى شبابه متواضعاً ، رشيقاً ، لطيفاً ، وسيما ، طويلا ؛ ثم صار فيما بعد « بطيناً ، رفيع الساقين ، أصلع الرأس » — وإن كان قد ألف كتاباً « فى العناية بالشعر »(١٠٣) . وكان فى كهولته يقرض الشعر أما فى شيخوخته فلم يكن يثق بنثره ، وكان يعهد إلى غيره كتابة خطبه وتصريحاته . ولو لم يكن تيتس أخاه لأمكن أن يكون أسعد مما كان ؛ ولكن أنبل الناس وحدهم هم الذين يغتبطون بنجاح أصدقائهم . أما دومتيان فقد استحالت غيرته من أخيه فى أول الأمر نكداً صامتاً ثم مكائد تدبر سراً لإسقاطة . واضطر تاستس أن يرجو أباه أن يصفح عن أخيه الأصغر . ولما مات ڤسپازيان ، أدعى دومتيان أن أباه قد أوصى بأن يكون شريكا فى

الحكم ولكن الوصية عبثت بها الأيدى ؛ ورد تيتس على هذا الادعاء بأن عرض عليه أن يكون شريكه وخليفته ، فرفض دومتيان هذا العرض وظل سادراً فى مؤامراته ؛ ويقول ديوكاسيوس إنه لما مرض تيتس عجل دومتيان منيته بأن أحاط جسمه بالثلج(١٠٤) . وليس فى وسعنا أن نتأكد من صحة هذه الأخبار أو غيرها من القصص التى وصلت إلينا عن شهواته الجنسية الطليقة — كقولهم إن دومتيان كان يسبح فى الماء مع العاهرات ، وإنه ضم ابنة تيتس إلى سراريه ، وإنه « كان فاجراً فاسقاً بالنساء والغلمان على السواء »(١٠٥) . ذلك أن التواريخ اللاتينية كلها لا تختلف فى شىء عن سياسة هذه الأيام ، فقد كانت ضربات توجه للوصول إلى أعراض رجال العصر الذى كتبت فيه .

فأما من حيث سياسة دومتيان نفسها فإنه كان فى العشر السنين الأولى من حكمه متزمتاً فى أخلاقه قديراً فى سياسته إلى حد دهش معه جميع عارفيه ؛ فقد اتخذ سياسة تيبيريوس واخلاقه مثلا يحتذيه ، كما اتخذ ڤسپازيان أغسطس مثلا آخر له . من ذلك أنه جعل نفسه رقيباً مدى الحياة ، ثم حرم نشر المطاعن البذيئة (وإن كان قد غض النظر عن فكاهات مارتيال الشعرية) . ونفذ القوانين اليوليوسية الخاصة بالزنى ، وحرم تمثيل المسرحيات الصامتة لمجافاتها الأخلاق ، وأمر بضرب عنق عذراء ڤستية حكم عليها بالزنى أو بمضاجعة أحد أقربائها المحرمين عليها ، وقضى على عادة الخصاء وهى العادة التى انتشرت مع ارتفاع أثمان الأرقاء الخصيان ، ولم يكن يطيق رؤية الدم المسفوك ولو كان دم الثيران التى يضحى بها فى المواسم الدينية . وكان رجلا شريفاً ، واسع الفكر ، لم يؤخذ عليه بخل أو شره فى حب المال ، أبى أن يقبل الوصايا ممن لهم أبناء ، وألغى جميع الضرائب المتأخرة من أكثر من خمس سنين ، وأعرض عن التجسس والمتجسسين . وكان فى أحكامه صارماً نزيهاً ، وكان له أمناء سر من معاتيقه ولكنه ألزمهم جميعاً أن يكونوا أمناء صالحين .

وكان عهده من أعظم عهود العمارة الرومانية ، فلما رأى أن النار التى شبت فى عامى ٧٩ ، ٨٢ قد دمرت كثيراً من المبانى وأنزلت بالبلاد كثيراً من البلايا ، وضع برنامجاً واسعاً للمنشآت العامة ليوفر بذلك العمل للأهلين ويساعد على توزيع الثروة(١٠٦) ، وكان هو أيضاً ممن يأملون فى إحياء الإيمان القديم بتجميل الهياكل والأضرحة والإكثار منها : ومن أعماله أنه أعاد بناء هياكل چوبتر ويونو ومنيرڤا ، وأنفق ما يعادل ٢٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى فى صنع أبوابها المصفحة بالذهب وأسقفها المطلية به ؛ وأعجبت رومة بنتائج هذه الجهود وأسفت على ما أنفق فيها من أموال طائلة . ولما أن شاد دومتيان لنفسه ولموظفيه الإداريين قصره الرحب المعروف باسم دومس فلاڤيا Domus Flavia شكا الأهلون بحق من كثرة ما أنفق فى بنائه من الأموال ، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على الألعاب الكثيرة الأكلاف التى حاول أن يخفف بها من كراهية الشعب . وقد دشن هيكلا باسم أبيه وأخيه ، وأعاد بناء الحمامات ، وهيكل الآلهة الذى أنشأه أجريپا ، والرواق ذى العمد الذى أقامته أكتاڤيا ، وهيكلى إيزيس وسراپس ، وأضاف أجنحة جديدة للكلسيوم ، وأتم حمامات تيتس ، وبدأ الحمامات التى أكملها تراچان .

ولم تشغله هذه المنشآت عن بذل الجهود الجبارة فى تشجيع الفنون والآداب حتى بلغ النحت الفلاڤى الملون فى أيام زعامته ذروة مجده ، وحتى النقود التى سكت فى أيامه رائعة الجمال . ومن الوسائل التى استعان بها على تشجيع الشعر أن أقام فى عام ٨٦ الألعاب الكبتولية ، وكانت تشمل مباريات فى الأدب والموسيقى . وأقام معهداً وبهواً للموسيقى فى ميدان المريخ ؛ وقدم معونة متوسطة لاستاتيوس Statius ذى المواهب الوسطى ، وأخرى لمارتيال ذى المواهب الوضيعة ، وأعاد بناء دور الكتب العامة التى دمرتها النيران ، وجدد ما كانت تحتويه من الكتب بأن أرسل الكتبة لنسخ المخطوطات المحفوظة فى الإسكندرية — وذلك برهان آخر

على أن مكتبتها العظيمة لم يحرق إلا جزء صغير من كنوزها فى النار التى أوقدها فيها قيصر .

وإلى هذا كله كان يصرف شئون الإمبراطورية أحسن تصريف ، وكان يتصف بما يتصف به تيبيريوس من عزيمة قوية صارمة فى الشئون الإدارية ، وقد ضرب على أيدى المختلسين والمرتشين ، وكان شديد الرقابة على تعيين الموظفين ومصائرهم . وكما فعل تيبيريوس بجرمنكوس إذ حد من جشعه ، كذلك استرجع دومتيان أجركولا من بريطانيا بعد أن قاد هذا القائد المغامر جيوشه ودفع حدود الأملاك الرومانية حتى وصلت اسكتلندة ، ويلوح أن أجركولا كان يعتزم مواصلة الزحف ولكن دومتيان أبى عليه ذلك . وقد عزا بعضهم استرجاع أجركولا لحسد دومتيان له وغيرته من مجده ، وجوزى الإمبراطور على هذا أشد الجزاء حين كتب تاريخ حكمه صهر أجركولا نفسه . وخانه الحظ فى الحرب أيضاً حين عبر الداشيون نهر الدانوب فى عام ٨٦ ، وغزوا ولاية موثيزيا Moesia الرومانية ، وهزموا قواد دومتيان ، فما كان من الزعيم إلا أن تولى القيادة بنفسه ، ووضع خطة الحرب فأحكم وضعها ، وأوشك أن يدخل داشيا ولكن أنطونينس ستورنينس Antoninus Saturninus الوالى الرومانى على ألمانيا العليا أقنع فيلقين من الفيالق المعسكرة فى مينز Mainz بأن تنادى به إمبراطوراً . وأخمد أعوان دومتيان الفتنة ، ولكنها أفسدت عليه خطته إذ مكنت أعداءه من جمع شملهم والاستعداد لقتاله . فلما أن عبر الدانوب لملاقاة الداشيين هزمه هؤلاء على ما يظهر ، فعقد الصلح مع دسبالس Dacibalus ملك الداشيين ، وأرسل إليه هدية كان يرسل مثلها فى كل عام يسترضيه بها ، وعاد إلى رومة ليحتفل بنصر مزدوج على الشاتين Chatti والداشيين ، واكتفى فيما بعد بإنشاء طريق محصن بين نهرى الرين والدنواب وآخر بين الثنية الشمالية لهذا النهر والبحر الأسود .

وكانت فتنة سترنينس نقطة الانقلاب فى حكم دومتيان ، أو الحد الفاصل

بين نفسه الطيبة ونفسه الخبيثة . لقد كان على الدوام شديداً لا يلين ، أما الآن فقد انحدر إلى القسوة والوحشية ؛ ولقد كان قادراً على أن يحكم حكماً صالحاً ، ولكن مقدرته هذه كانت موقوفة على أن يكون حاكماً أوتوقراطياً لا معقب لحكمه ؛ ففى عهده لم يلبث مجلس الشيوخ أن فقد سلطته ، وكانت اختصاصاته الواسعة بوصفه رقيباً سبباً فى إذلال هذا المجلس وبث روح الانتقام فى نفوس أعضائه . هذا إلى أن غرور دومتيان لم يقف عند حد ، والغرور كما هو معروف من الصفات التى تترعرع حتى فى نفوس الوضيعين من الناس : ومن مظاهر غروره أنه ملأ الكبتول، بتماثيله ، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته كما نادى بتأليه نفسه ، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة سمو **الفلافيال** Flaviales ليشرفوا على عبادة أولئك الأرباب ، وطلب إلى الموظفين ألا يذكروه فى وثائقهم إلا بلقب « سيدنا وإلهنا Dominus et Deus Noster » . وكان يجلس على عرشه ويشجع زائريه على أن يحتضنوا ركبتيه ، وأدخل فى قصره المزخرف آداب القصور الشرقية ، لأن الزعامة أصبحت بقوة الجيش وانحلال مجلس الشيوخ ملكية غير دستورية . واشتعلت نيران الفتن على هذا التطور الجديد بين صفوف الأشراف وبين الفلاسفة والأديان التى أخذت تتسرب إلى رومة من بلاد الشرق . وأبى اليهود والمسيحيون أن يعبدوا دومتيان ويتخذوه إلهاً من دون الله ، ونددد الكلبيون بكل أنواع الحكومات ، وأقسم الرواقيون ليقاومن كل مستبد جبار ويكرمن قتلة المستبدين وإن قبلوا أن يحكم البلاد ملوك . وفى عام ٨٩ طرد دومتيان الفلاسفة من رومة ، ثم أخرجهم من إيطاليا كلها فى عام ٩٥ ، وكان قرار طردهم من رومة يشمل معهم المنجمين ، لأن تنبؤهم بموت الإمبراطور أوقع الرعب فى قلب رجل خال قلبه من الإيمان ومستعد لقبول الخرافات والأوهام . وفى عام ٩٣ أعدم دومتيان بعض المسيحيين لأنهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدى تمثاله ؛

وتقول الروايات المتواترة إن فلافيوس كلمنز Flavius Clemens ابن أخيه كان من هؤلاء القتلى(١٠٧) .

وزاد خوف الإمبراطور من المؤامرات حتى بلغ فى السنين الأخيرة من حكمه حد الجنون ، فكان يبطن بالحجارة البراقة جدران الأروقة التى يمشى تحت سقفها ، حتى يرى صورة من كان وراءه معكوسة فيها . وكان يندب سوء حظ الحكام لأن أحداً لا يصدقهم إذا قالوا إن الناس يأتمرون بهم إلا إذا نجحت المؤامرة ، وكان كتيبيريوس يستمع للواشين حين تقدمت به السنون ، فلما أن تضاعف عدد الوشاة ، لم يكن أحد من المواطنين ذوى المكانة يأمن على نفسه وهو فى عقر داره من الجواسيس . وزادت التهم والأحكام زيادة سريعة بعد فتنة سترنينس ، فنفى الأشراف أو قتلوا تقتيلا ، وعذب كل من اشتبه فيه عذاباً شديداً ، وكان من بين ضروب العذاب « إدخال النار فى أعضائهم التناسلية »(١٠٨) . واتخذ مجلس الشيوخ المروع — وكان من أعضائه تاستس الذى يقص هذه الأخبار والحقد يملأ قلبه — أداة لهذه المحاكمات والأحكام ، وكان كلما أعدم إنسان يحمد للآلهة أن أنجت الزعيم .

وكان من الأخطاء التى وقع فيها دومتيان أن قذف الرعب فى قلوب آل بيته أنفسهم . من ذلك أنه أمر فى عام ٩٦ بإعدام إبفرديتس Epaphraidtus أمين سره لأنه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة . وأحس معاتيق بيته وقتئذ بأنهم مهددون بالخطر ، فاعتزموا أن يتقوا الشر بقتل دومتيان ، وانضمت إليهم دوميتيا Domitia فى هذه المؤامرة . وحدث فى الليلة السابقة لليلة مقتله أن قفز من فراشه مذعوراً . ولما حلت الساعة المتفق عليها وجه خادم دوميتيا الضربة الأولى ؛ واشترك أربعة عشر غيره فى الهجوم عليه ؛ وقاوم دومتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون ، ثم خر صريعاً ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والأربعين من عمره والخامسة عشرة من حكمه (٩٦) . ولما علم الشيوخ بالنبأ

مزقوا ماكان له فى قاعة المجلس من صور وحطموا ما وضع له فيها من تماثيل وأمروا أن يحطم كل ما فى الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له ومن نقوش يذكر فيها اسمه .

وبعد فقد ظلم التاريخ هذا العهد « عهد الطغاة » ، وكان سبب هذا الظلم أنه تحدث عنه أكثر ما تحدث بلسان أعظم المؤرخين نباهة وأبعدهم عن الإنصاف . ولسنا ننكر أن تزثرة سوتونيوس كثيراً ما توئيد اتهامات تاستس أو تحذو حذوها ، ولكن دراسة الأدب والنقوش قد حكمت عليهما بأنهما يظنان خطأ أن كتابة تاريخ الإمبراطورية ، وتاريخ القرن الذى كانا يعيشان فيه ، لا تخرج عن تسجيل رذائل الأباطرة العشرة وخطاياهم . إن أسوأ هؤلاء الحكام لم يكن مجرداً من كل خير — فقد كان تيبيريوس حاكماً مخلصاً فى عمله ، وكان كالجيولا مرحاً جذاباً ، وكان كلوديوس يكدح لتعلم الحكمة ، وكان نيرون مرهف الحس بالجمال ، وكان دومتيان قديراً فى حكمه صارماً فيه . وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إدارى حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام خلال هذه الفترة الطويلة كلها . يضاف إلى هذا أن الأباطرة أنفسهم كانوا أكبر ضحايا سلطانهم ، فقد كان مرض من نوع ما يجرى فى دمائهم ، أشعلت ناره حرارة شهواتهم الطليقة ، وظل يلازم اليوليوسيين — الكلوديين حتى قضى عليهم كما قضى على أبناء أتريوس Atreus . وكان عيب من نوع ما فى نظام الحكم هو الذى حط من شأن الفلاقيين فى مدى جيل واحد ، فهوى بهم من حزمهم فى شئون الحكم وصبرهم على متاعبه إلى القسوة الوحشية المروعة . ولقد اختتمت حياة سبعة من هؤلاء الرجال العشرة أسوأ خاتمة ، وكانوا كلهم تقريباً غير سعداء فى حياتهم ، فقد عاشوا فى جو من المؤامرات والدسائس والخيانة ، يحاولون أن يحكموا عالما من بيت تسوده الفوضى . وإذا كانوا قد أطلقوا العنان لشهواتهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون أن سلطانهم العظيم سريع الزوال وأنهم كانوا يعيشون يروعهم فى كل يوم

علمهم بأنهم مقضى عليهم بالموت الباكر المفاجئ ؛ وإذا كانوا قد انحطوا إلى الدرك الأسفل فما ذلك إلا لأنهم كانوا فوق متناول القانون ، وإذا كانوا قد أضحوا أقل من الرجال فما ذلك إلا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون :

ولكننا مع ذلك لا يحق لنا أن نغفر لهذه الحقبة أو للزعامة ما اقترفته من الجرائم الخسيسة الدنيئة ؛ نعم إنها نشرت السلام فى ربوع الإمبراطورية ، ولكنها بسطت حكم الإرهاب على رومة ، وأفسدت الأخلاق بما ضربته من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وقطعت أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهلية التى كانت أشد هولا ووحشية من حروب قيصر وبمبى ، وملأت الجزائر بالمنفيين ، وأفنت خير الرجال وأشدهم بأساً وأقواهم قلباً . ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين . وقد استبدلت فى رومة حكم القانون بطغيان الأفراد وشادت صروحاً ضخمة بجمع الخراج من الولايات ، ولكنها أضعفت النفوس بإرهاب ذوى المواهب والابتكار حتى يذلوا أو يصمتوا . وشر من هذا كله أنها جعلت الجيش صاحب السلطة العليا فى البلاد . فلم يكن منشأ سلطة الزعيم على مجلس الشيوخ هو عبقريته الفذة ، أو ما جرى به العرف ، أو مكانة الزعيم وهيبته ، بل كان عماد هذه السلطة أسنة الحرس . ولما رأت جيوش الولايات كيف كان الأباطرة يرفعون على العرش ، وكيف كانت العطايا توزع فى العاصمة والغنائم تؤخذ منها ، استولت على سلطة الحرس البريتورى ، وتولت هى صنع الملوك . ولقد استطاع الحكام العظماء ، الذين كانوا يختارون بالتبنى لا بالوراثة ، استطاعوا بالحكمة أو بالبطش أو بالمال أن يكبحوا جماح الفيالق الرومانية ويؤمنوا الحدود والثغور ، فلما أن عادت البلاهة إلى الجلوس إلى العرش بعمل فيلسوف عاشق ، شق الجند عصا الطاعة وفسد نظامهم ، ومزقت الفوضى غشاء النظام الرقيق ، وتآزرت الحرب الأهلية والبرابرة المتربصون فتحطم صرح الحكم النبيل المزعزع الذى شادته عبقرية أغسطس .